الذَوبانْ

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر، شارع گولان، اربيل، كُردستان العراق

غفور صالح عبدالله

الذَوبانْ

رواية كردية

مراجعة:
محمد صابر محمود

اسم الكتاب: الذوبانْ – رواية كردية
تأليف: غفور صالح عبدالله
مراجعة: محمد صابر محمود
من منشورات ئاراس رقم: ٧١٧
التنقيح: أوميد أحمد البناء
الإخراج الفني: آراس أكرم
الغلاف: مريم متقيّان
الطبعة الأولى ٢٠٠٨
رقم الإداع في المديرية العامة للمكتبات العامة في إقليم كردستان: ٢٠٠٨/١٧٥

الفصل الاول

١

قطع من السحب الداكنة متجمعة بصورة كثيفة، عند الجهة الشمالية لسماء المدينة. كل غيمة متجسدة في هيئة حيوان خرافي ما. البعض منها يبدو على هيئة أسد كهل فاغرا شدقيه لالتهام طريدة اضخم منه. أو امرأة خرافية تحتضن ماردا و تقبله. كلب خرافي وناقة يتمازحان. رجل يعانق حيوانا خرافيا مجهول الجنس.. يمامة خرافية تستهزئ بالوقائع التي من حولها. تتناثر هذه الصور بعد ذلك من جراء هبوب ريح ما. تجتمع ثانية لتكوّن صورا أخرى، تتدافع، تتداخل، متلهفة، كأنها تنوي الرحيل الى مكان قصي. أما في الجهة الجنوبية لسماء المدينة، فثمة نسمة خاملة تدفع الغيمات البيض الشفافة وتبددها الهوينا نحو أرجاء أخرى. ومغزل النهار الهائل الساطع، يطل من أعلى القمم خلل الغيوم الداكنة، ثم يرتفع ما يربو على المترين، وكأنه لص مطارد، يروم بسط سطوته على الكرة الارضية. لكن المجاميع من الغيوم تستحيل الى خيمة مهترئة لعائلة معوزة وتحجب ضياءها.

***

إن دروب هذه المدينة وأزقتها التي تقطنها مرغما، استحالت الى مستنقعات من المياه الآسنة، وفي أغلب الأمكنة تعوزك عوّامة للعبور الى الطرف الثاني. في اليوم الذي صدر فيه قرار نقلك من تلك المدينة المترية والمدججة بالزحام الى هذه المدينة، شعرت بإنقباض شديد، اذ إنك والتشرد صنوان وقد اعتدت عليه منذ سنين خلت، وأدخرت فيها عشرات

من الذكريات المرة واللاذعة والحلوة، لا تريد مبارحتها كثروة نفيسة وغالية على الفؤاد، حيث لم يبق لك القدرة اكثر لكي تستحيل الى جعبة اخرى للذكريات تارة اخرى، ولم يتغير هنا اي شيء، سوى التعاسة المكررة والتشرد واجترار ذكريات حياة شاقة وقاسية وعابثة.. حينما تصل الى الطرف الثاني من تلك المستنقعات من المياه الآسنة، لا تدري الى أي صوب تيمم وجهك أو الى أية قبلة او حشود تحث الخطى.. أ إلى الجحيم أم الى الفردوس؟ لا يهم أياً كان. وقد ذقت مرارة الجحيم واكتويت في أتونها كحبة حمص. ولا تعرف أية طريق تؤدي الى الفردوس، او في أية بقعة شيدّ بنيانه. لكن في دنياك هذه يوجد آلاف من الناس يعيشون على حساب شقائك وتشردك عيشة هانئة، ولا تتحرك لهم شعرة. يدعونك شاعرا ولا تشبه الشاعر. زرافات زرافات تقرأ في أساريرك المجعدة بأنك تكرع قربة من الخمر كل ليلة. إنك مستمر على فعلتك هذه ضاربا لومهم وتأنيبهم عرض الحائط. لأنهم حتى وإن امتنعت عن القيام بهذه الفعلة، فإنهم سوف يرددون قائلين بأنك قد انقضيت وانتهيت وتدحرجت الى أسفل السافلين. الماضي لا يعني شيئا، لقد صار رقيّ عداد ألوف الأدعية والتعاويذ على أكتاف النسوة المجذوبات، انهم يريدونك أن تولد من جديد وهم يعتلون قمقمهم. وهذا الآن لك مستحيل، انقضى الكثير ولم يبق الا القليل منه، وان حدث هذا فإن التاريخ يعيد نفسه، وانت تشمئز فيه. وان غالبية جوانب التاريخ هي وصمة عار على جباه البشرية. أحرق "نيرون" مدينة روما بحجة الدفاع عن المستضعفين، واصبح "سبارتاكوس" بمثابة مثوى مخفي وذو الشنب المربع بهرته أفكار "نيتشه" وجلب الدمار لثلثي الكرة الارضية، انت عارف بدخيلة نفسك، لكنهم يفهمونك على غير حقيقتك.حتى تلك العجوز

التي تسكن في غرفة بجوار غرفتك في ذلك الخان، تفوح رائحة العهر من أحاديثها، فتقول لك بلغة خليعة "ان من يعاقر الخمرة كأنه ينكح أمه"...

***

غرفتك هي غرفة اسطورية مشيّدة من لبنات الشرق وطينه الخرافي، أمست مرتعا لأعراس الفئران والحشرات المتنوعة، حين اخترت بنفسك تلك المدينة المدججة بالغبار، ووأدت سبع سنين من عمرك فيها كإنسان مبعد، قد منحت حياتك المفجوعة منذ الولادة ثروة قوامها عشرات من الذكريات الحلوة والمرة.. احسنت صنعا في تلك الفترة عندما كنت تتجنب الناس، وحين يُضيق الضجر عليك الخناقَ في غرفتك، تنطلق على الفور نحو الخارج وترخي العنان لخطواتك المرهقة أبدا، وبنفس مشوشة ومنخورة تصنع لنفسك جناحين كي تحلق بهما نحو احد الجسور. كمن يفلت من مصير مروّع أو خوف من الجنون. عندما كان الناس يمرقون بجانبك، كنت تصمّ أذانك بالأيدي كي لا ترن فيها ثرثراتهم ويخفق قلبك لها وتسبب في تأجيج حقدك وغضبك. لأن ضجيجهم لا يثير اهتمامك قط بعد الآن، ولا تنخدع به ولا يصيبك بدهشة، وقد تحررت من هذه النزعة. فواجع اكثر فداحة اصبحت موضع انبهارك ودهشتك. أنت الآن معين دهشة الآخرين وانبهارهم. وقد شببت عن الطوق في أتون عالم مليء بالدهشة والوجل،ولا تضيف قيد أنملة على أكوام ثرثراتهم التي يطلقونها منذ انسان النياندرتال. وقد اعتدت على هذا الطقس اليومي.. تهرع الى احد الجسور وتدندن بأغنية الانسانية الحزينة أبداً. اعتراك السأم من كل الأشياء، شرعت في البحث عن أشياء جديدة. فهمت في المدن والبلدان العديدة، سواء أكان في الخيال ام في أحلام يقظتك، تشردت لسنوات طوال من مدينة الى أخرى، ومن قرية الى أخرى، راجلا

او راكبا، كانت بالنسبة لك مهمة عادية، ولا يهدأ لك بال. كنت طائرا عنيدا وغير مستقر لا يقر لك قرار، تشق سماوات تلك الأصقاع وتحلق فيها بعينين محمرتين من جراء الأرق. وتبدو وكأنها أصقاع أسطورية وتدفعك الى أتون الخوف والقلق.. والآن انت شخص لاجئ ولست بلاجئ. لا تخلد الى الراحة في موطنك، وقد تصل بك الحال ألاّ تستقر حتى داخل نفسك. الاستقرار والسكينة استحالا سنونوة هائمة وتداعى وكرها. تبحلق دون هوادة في الاصقاع المعمورة والمهجورة. صارت سريرتك مأوى، لكنها لا تسمح لك بالإيواء فيها. مثل شاعر تائه ترمق الاشياء وتتأملها. ان اغترابك هو محصلة تاريخ صعب وشاق ومحفوف بالقشعريرة. منذ ان ابصرت هذه الدنيا وكان تاريخك عبارة عن التشرد والتسكع والنكبات، حتى انك تخفي وجهك عن الناس خجلا، وان لم تكن بهذه الصورة فإنك كنت تقرأها على سيماء ودخيلة الآخرين ان كان من المعارف او الغرباء، رأوا من المستحسن، أم بالنسبة لك كان امرا حسنا، ان تهمل لمدة ست او سبع سنوات، كموظف صغير عديم الجدوى في تلك المدينة المسكونة بالأتربة والغبار، وتخيط أيامك بلياليك بخيوط من الوحشة ودونما أنيس.. وعندما تصل الى احد الجسور بقلب مفجوع كنت تنحني على حاجزه الحديدي، وتزفران أنت وتلك الطبيعة نفثات ملوثة، ومياة دجلة تنساب الهوينا من تحت الجسور. عندما تصطدم بالأعمدة الخراسانية، وترتفع منها أصداء آلاف الصرخات والعويل وأنات الألم، كأنها تجرف معها صريخ ملايين البشر. تكون مياهها في الصيف صافية نوعا ما، لكن عند حلول الشتاء تتكدر، وتهيم على وجهها حزينة وباهتة الى مكان قصي في العالم، وعندما كان يتكدر صفوها في الشتاء كنت تتغنى بها، بهذا البيت من الشعر:

يا دجلة أنت ايضا مثلي كدراء
وملوثة بالأرض والتراب
تهيم على وجهك، حانقة غاضبة
لكن حنقي وغيضي ليس بنهر يهيم على جهه..

وعندما ترى مياهها على هذه الشاكلة، وكأنها شيء ما يزمجر في أعماقك، أشبه بلسعة او صريخ، او وخزة، ويتحول على الفور في مآقيك الى نثيث الحسرات من الدموع. كنت تعرف أين تنبع هذه المياه، التي كانت تجرف معها ملايين الحسرات والعبرات وبؤس الناس، وتنحدر بها صوب بحار ومحيطات العالم. من المحتمل ان مياه نهر قريتكم تصب فيها، ويخطر على بالك بأن تلك اللجج تجرف أطلال لعب ونفثات وهموم وعناق مئات الأسماك الصغيرة في الماء الذي كان ينساب تحت طاحونة قريتكم، يودعنك مكلومة وينحدرن بجانبك وتشرع ثانية تدندن الأغنية الآسرة للبشر، تتأمل النوارس التي تصفق بجناحاتها وتنحدر مع نغمات (قيغة، قيغة) مع موجاتها الحنون، وتصطاد الأسماك الصغيرة القريبة من سطح الماء، بمناقيرها الصغيرة الحمراء. تبدو وكأنها تتمازج معها. والاسماك الصغيرة بدورها كانت وكأنها هي الاخرى تلعب معها، وتعض بافواهها الدقيقة سيقان النوارس الرفيعة الجافة، بغتة يرتعد البعض منها بهلع وترفرف على سطح الماء. تسري في جسدك قشعريرة. عندما كنت صبيا كنت تسبح في ذلك الغدير الذي كان أسفل بساتين القرية. والأسماك الصغيرة تعض جسدك من عدة جهات عضات خفيفة كأنها تنوي المزاح، فيقشعر لها بدنك وتندلق مسرعا من الماء وجلاً، وتهرع الى صخرة ما وتقتعدها وترمق الماء من بعيد ، عند رؤيتك صدور الأسماك الفضية المتلألئة تحت نور الشمس، تتشفى بشهقة عميقة.. لا يتحرش

نورس بنورس آخر في النهر، كأن ذلك ناموس اختارته لنفسها. ناموس شرع على اساس الغريزة والحاجة وخوف الفناء، وليس نابعا من عقل البشر وخططه، نادرا ما تجد نورسا يهاجم نورسا آخر بغية غريزة الاشباع. ليس مثل انسان هذا الدهر الداعر. يتمرغ انسان ما في دمه بمجرد اطلاق شتيمة واحدة، وتندلع عشرات الفوضى والحروب الداخلية، وتضرم نيران الحروب بين الأوطان، رغم ذلك يطمحون في الابقاء على انسانيتهم وينادون مرة اثر مرة بالسلام.. النوارس هي من الطيور المرهقة ابدا، مسافرة في مشارق الدنيا الى مغاربها في كافة الفصول بحثا عن كلأ عيش عابث، تقطع مئات الفراسخ من السماوات، وانت بدورك كنت نورسا تعيسا وذا حظ عاثر، ومنذ سنوات وانت تسافر شمالا وجنوبا بعهدة وحدتك وطيشك.. أيه.. ربما نورس ذكر يقتني لنفسه نورسة ما ويتخذها أنيسة وحشته، وعندما يجن الليل يتعانقان وينسيان التعب ومشاغل الغد، حقا ان النورس من هذه الناحية طائر محظوظ. ولا يردعه رادع من اجتياز الحدود، يقطعها واحدا تلو الآخر دون جواز سفر، وانت اذا حملت حقيبة السفر على كاهلك وقصدت مدينة أخرى خربة. سوف يشرعون في جمركتك كبضاعة مهرّبة، يستفسرون عن هويتك والبيانات الأخرى، واحيانا يصادف أنهم يحتجزونك في غرفة مليئة بالبراز والرطوبة والآخرين والحرارة الخانقة لبضعة أيام. لحين يتضح لهم بأنك مجمرك وغير مهرّب. يتأكدون من اسمك وعنوانك ويؤيدون ماركتك المسجلة ويسألونك:

–اسمك..؟

كمن كان وجوده محظورا وذا خطورة تجيبهم بخجل:

–قارەمان ٠٠ قارەمان حمه سور٠٠

يسألونك ثانية باستهزاء :

–ان هذا الاسم، هو اسم الجن والعفاريت

–كلا.. ياسيد.. إنه اسم البشر والإنس..

–اذن ما معناه.. ؟

–قارەمان: يعني البطل، الشجاع، الصنديد..

–وماذا عن حمه سور..؟[1]

–يعني، محمد الأحمر، قرمز ممد، مهمدي سورخ[2]، انه اسم النبي فصار عندنا الاحمر والأغبر والأسود، لقد أسماه جدي بهذا الاسم تيمنا باسم الرسول...

اثر هذه الاجابة الموجزة كانوا يشبعونك ركلا، وتتهشم كرامتك الانسانية كابرا عن كابر وتهان.. بحجة انك تستهزيء بالدين والأولياء..

***

تسلك طريقا أخرى، والطرقات متشابهة مع بعضها البعض، ولا تؤدي الى مكان.. وصلت قبالة القلعة القديمة للمدينة التي بدورها قد رممت بعض الشيء، كأنهم يريدون بهذه المهمة أن يجددوا التاريخ وأن يزوقوها كعجوز شمطاء بزي العروس لتزويجها لنيارنة[3] العصر. لقد فقدوا الثقة بحاضرهم، ليس في مقدورهم ان ينفذوا أيما شيء، يريدون التباهي بذلك التل من التراب والحجارة. رغم انهم يصمون يوميا تاريخ الماضي والحاضر بالعار عشرات المرات ويلملمونه بين فخذي امرأة ما. ان بعض البيوت في أعلى القلعة على وشك ان تنهار مع ساكنيها من جراء الاهمال.. فتاة قاصرة حزينة تقف يوميا في أسفل القلعة مع

(١) و (٢) نفس المعنى بالتركية والفارسية.

(٣) نيارنة: جمع نيرون..

انبلاج النهار، يبدو أنها تتسول، أو..؟!

هناك عدة مطاعم قبالة القلعة، حشد جائع ينحدر صوب مرتع العلف، انهم لا يفقهون سواه ولا يستطيعون القيام بشيء آخر فيما عداه..؟. في الأيام التي تكون جيوبك عامرة بالنقود نوعا ما، تلعق شدقيك وتلج واحدا من هذه المطاعم قبالة القلعة. كانت حياتك برمتها عبارة عن الجوع والإملاق. نادرا ماكنت تتناول أكلة دسمة طوال سنة كاملة، بعدئذ تفوح رائحتها من فمك مدة شهر كامل. وتمنح خلايا جسدك مذاقا لذيذا وتنتعش، يبسط المطعم ذراعيه لك بلا مبالاة، وقد استحالت دخيلتك الى زكيبة مليئة بالأحزان والسأم، الحنق والغيظ يدغدغان ذهنك تجاه نواميس حياتك المختلة هذه. من المحتمل أنك لست إلا انموذجا لحياة البشر قاطبة؟ ان غيظك هذا تسببه تضرعات اولئك الأطفال الذين يحتشدون أمام تلك المطاعم يوميا، ويصبح غيظك هذا هدية لسريرة أيامك الخاوية "ياعم.. إني جائع.. اعطني بعض النقود.. درهما.. درهما واحداً.. ثمن رغيف..". عندما تلقي بثقل جسدك على احد المقاعد داخل المطعم، فإنه بدوره يحتج بصريره من ذلك الثقل، إنه لا يتحمل ثقل وضخامة أحزانك وآلامك. يقترب أحد الندّل، يطل عليك كتمثال من الجص، شابكا يديه فوق حفرة صرته، وتندلق من طرفه نظرة خبيثة، ثم يميل برأسه نحوك بحركة غير لائقة:

–حساء الدجاج.. كبة الموصل، برياني بغداد واربيل والسليمانية، ياخني.. دجاج مشوي.. تمن ومرق..

تكون شارد الذهن عندما يردد صاحب الحركة غير اللائقة أسماء الأكلات بهمس كرّة أخرى. وقد هربت نظراتك الى ما وراء واجهة المطعم. تتشبث بهؤلاء الصغار من ذوي الثياب الرثة. كان بعضهم يقترب

من المدخل ويشمّون روائح الأطعمة، وتتناهى الى اسماعهم الأسماء التي كان يرددها النادل، ويتنفسون عميقا جراء العجز والحرمان، يسحبون بمناخيرهم الروائح المتبخرة المختلطة مع الدخان، كأنهم يمتصون رائحة الترياق. يرومون بذلك ان تنتعش خلايا اجسادهم بتلك الروائح وتستمد الطاقة منها(*)..

***

لقد مضت فترة وجيزة على نقلك من تلك المدينة المشوبة بالاتربة، الى هذه المدينة، وكنت تشاهد يوميا هذا الجمع الغفير من الأطفال. وهم يحتشدون بسراويلهم الرثة القذرة امام المطاعم والدكاكين. منهم من يغطي رأسه الصغير بقلنسوة مثقوبة ومهترئة، يندلق منها شعره القذر، ويبسطون بذلة أكفهم للسابلة ولربما دمعة طفل ما أدت الى الغاء كافة نواميس هذا الكون. اذن لم أنين هؤلاء الاطفال المشردين لا تحرك فيهم شعرة؟

"ياعم.. أنا جائع.. أسألك درهما واحداً.. او ثمن رغيف.."..

ثم تحملق في ذلك الحشد الشره داخل المطعم، وتسمع صوت مصمصتهم من جراء الأكل، وينفلت صوت مصمصتهم مع الدخان من خلل النوافذ والمدخل، من ثم يرتفع صوب قمة القلعة. وتضيق الخناق على سديم الأفلاك، إن ملامح الأطفال رغم اتساخها جراء الغبار والعرق تظهر للعيان صافية وبريئة، يمسدونها بأيد محمومة وتعبة، كأنهم يبغون إخفاء عار ما، عندما يستبد بهم التعب من جراء التسول من السابلة، يولجون أصابعهم في ثقوب مناخيرهم. وفي بعض الأحيان يدفع بهم

(*) يقصد هنا اطفال البارزانيين الذين قتل ذويهم على يد المجرم صدام حسين وكانوا يسكنون قصبة قوشتبه قرب اربيل.

السأم الى التطاول على بعضهم البعض، والتراشق بالسباب والشتائم فيما بينهم، يبدو أن هذا السلوك، هو بمثابة شكل من اشكال الاحتجاج على حياتهم المزرية هذه وتجسد في ذلك التصرف ثم يتشابكون بالأيدي، الى ان يتدخل واحد من السابلة ويقوم بفض النزاع فيما بينهم بشتيمة مقززة:

–يا أولاد الحرام..

–يا أولاد الكلاب..

تلسع هذه الشتيمة إباءهم كلسعة النحل وتستفز فيهم غريزة ما، يدركون في الحال بأنهم من طينة واحدة، اذن لماذا يغدرون ببعضهم البعض؟ عندها يتفرقون ومن ثم يتعانقون ويشرعون بالاستجداء من السابلة. وتداس كافة القيم الانسانية بالاقدام "يا عم.. درهما واحدا.. لا يهم.. ثمن رغيف.. أني جائع.."..تفكر بالهروع الى الخارج لتشبع هؤلاء الاطفال بوليمة واحدة. خطر على بالك فكرة، انك فيما اذا قمت اليوم بهذه المهمة، فمن ذا الذي يقوم بها غدا، أو بعد غد او بعد سنة او سنتين؟ خطبة احدالملالي الجشعين كانت تقلب هذه الاجابة رأسا على عقب. وانت بدورك قد استحال الجوع الوراثي رقعة خيطت على كتفيك، بخيط اسطوري، صار مشيمة لجموحك وترحالك من قرية الى قرية ومن مدينة الى أخرى. ترمق ثانية الحشد الشره، فيتحول حنقك الى قنبلة تبغي تفجيرها، لكنها قنبلة مزيفة، أتعني شيئا؟. عندما انخرطت في صفوفهم في تلك السنين الخوالي اللواتي مضين، كنت تريد ان تتحقق هذه الأمنية، لكنك قفلت راجعا صفر اليدين، وذهب عنفوانك أدراج الرياح وتداعت حياتك العائلية.. كان الحشد الشره لا تزال خطومهم تنغرز في الأطباق العامرة بالأطعمة الدسمة اللذيذة ببلادة. كان صاحب

المطعم يتفرج على عراك الأطفال قرب المدخل مبتسما، ويقبض الثمن من الزبائين بيد شرهة وجشعة على أمل ان تحتفي به عند المساء إمرأته الثرثارة في البيت، كان يصادف أن تشاهد في قرية أو في زقاق من أزقة مدينة ما كلبا منكبا على التهام عظمة، او حاشرا شدقيه الأسودين في مخلفات طعام ما. وكان كلب آخر يقتعد عجيزته بعيدا من جراء العجز والخوف، ويرمق زميله الذي كان يغرز شدقيه في بقايا الطعام بعينين انطفأ فيهما البريق، ويلعق شدقيه بلسانه الطويل باشتهاء لا متناه، وحين يشبع الكلب الآخر يشرع في التحديق مشفقا على زميله ويبارح المكان، كأنه كان يدعوه لإخماد لهيب جوعه. كنت تقول في قرارة نفسك "حتى الحيوان يدرك مغزى الجوع وقدسية الشبع، اذن لم لا يحس به هؤلاء الشرهون". كل مرة عندما كنت تعود الى هذه المدينة، تصادف في الطريق تلك النسوة المنكوبات مع أطفالهن ونساء أخريات كن يقفن منذ الصباح الباكر يوميا في القيظ والزمهرير، أو يجلسن القرفصاء ملتفات بألف تعاسة وتعاسة، والمتشحات بالسواد والأنين، كن يسكنّ في تلك القصبة التي تقع على طريق هذه المدينة، التي تبتعد عنها ببضعة فراسخ، كن يلوّحن بالأيدي للمركبات القاصدة اليها. تراهن كيف يستقلن سيارات البيكاب ويتقرفصن في جوفها من جراء تيار الهواء القوي الذي يهب جراء سرعتها. كن يلتحفن بجميع قساوة الانسان المعاصر. حين الوصول الى المدينة، كان الأطفال يتسربون الى الشوارع والأزقة وامام المطاعم والمحلات، اما النسوة فلم يكن أحد يعرف ماذا كن ينجزن، أخادمات للبيوت؟ أم التسول...؟

٢

في صبيحة هذا اليوم تَنفلِتْ من تلك المستنقعات الصغيرة الآسنة بنفس كدراء، لا تدري وجهتك، تستمر في مكانك لهنيهة. فتضع سبابتك على صدغك الأيمن بغية التفكير. لم تكن فيما مضى بهذا الشكل. كان التفكير يدغدغ نزواتك على الفور من تلقاء نفسه. ربما السبب هو تعاطي الخمر، أم من جراء الوهن الذي أصاب خلايا مخك، حيث تتصرف كل خلية على هواها، ولايهمها شيء؟ تمسد بيد خاملة ذقنك الطويل، إن استطالته هي بمثابة علامة فارقة، لو لم يكن طويلا بهذا الشكل لما شك أحد في إنك، تعيس، مهموم، تائه.. لا.. لا.. لست بتائه، نعم، إنك مكتئب ولست بمكتئب دوما.. تتثاءب في قارعة الشوارع، اذ تنسى ان تتثائب يوميا في الصباح في غرفتك عندما يغلبك النعاس، لتنشيط عضلاتك، يوميا تفعل هذا، وتغمض جفونك مرتين او ثلاثا وتفركهما، تنظف بخنصرك ما علق بهما من قذى، استقبلتك اواسط المدينة محتضنة إياك بحضن قذر وخانق، حضن متسكع، تتدحرج عشرات من احزانك وأحلامك البائرة فوق الشارع المتاخم للقلعة. هناك كلب تعلقت قائمتاه الخلفيتان بالحاجز الحديدي المشبك لدائرة ما. استحال الى قربة منتفخة على الحائط تتدلى فوقه، ربما أنه أراد أن يثير شغبا في الداخل أم أنه كان يبحث عن الطعام، كان يتدلى من الوسط نحو الأسفل، كأنه يستنجد بالناس لإنقاذه وقد تحولت عيناه الى كرتين زجاجيتين عائمتين على الصديد، كانتا تتشبثان بالسابلة، ويطلق زعيقا ومن ثم يشرع في أنين

خافت، يسيل اللعاب من شدقيه وينساب على الحائط، وينقش عليه خريطة لوطن المنكوبين، شيخان قاما بتحرير قائمتيه من خلل القضبان وانقذاه.. ضحكت منهما "الحيوان أثمن من الانسان المعاصر" ولم لا.. إن حدث مكروه لإنسان ما هل يلتفتون اليه بهذه الصورة؟ أو اذا وقع بين يدي جلاد هل بوسعهم أن يحرروه من براثنه؟ واذا خرس لسانه من الاملاق هل بوسعهم ان ينجدوه؟ أنه لعصر مختل ربما الخرافات على وشك الحدوث، وليتحول روث حمار الدجال الى التمر وبوله الى ماء الشرب، يتبعه الناس زرافات زرافات، وتذهب جهود الفلاسفة وكفاحهم جميعا أدراج الرياح.. الحيوان أثمن من الانسان في هذا العصر، لم لا.. ها هي ـ بريجيت باردو- رغم أن ألوفا من مواطنيها يتضورون جوعا وآلافا من البلدان الأخرى ترزح تحت نير ظلمه. لكنها تكتب الرسائل وترفع صوت الاحتجاج ضد الذين يضطهدون الحيوانات، وهي تعلق اللبان وتركع الويسكي وتتعاطى الترياق، لكن من هو ذلك الفتى الشهم والرجل الفيلسوف الذي بوسعه ان يخالف حكومته ويصرخ محتجا ضد الأوطان التي يكبل فيها الانسان كحيوان بائر ويسلخ جلده؟ حتى زعماء امريكايقومون بتربية الكلاب وتشاركهم في اجتماعات الكونكرس، وربما تشاركهم ايضا في قراراتهم.. لو كانت المسألة هي مسألة "الكلب" فإنه اكثر وفاءا من بقية المخلوقات "أعطي الرغيف للكلب ولا تعطيه لناكر الجميل". شاهدت في أحد الأفلام السينمائية كلبا ضحّى بنفسه في سبيل انقاذ حياة صاحبه، عندما كان صاحبه على وشك أن يضع قدمه على لغم، فانتبه له الكلب فقفز قفزة مفاجئة، فأبعد صاحبه، غير أنها أودت بحياته هو حيث تقطعت اوصاله من جراء الانفجار..

***

انحدرت الى الأسفل، رأيت أمام احد الأبواب امرأة ذات جسد مكتنز، رمقتك بنظرة داعرة أم انك ظننت هكذا. أحسست بدوي في نافوخك كدوي الرعد في الربيع. جفل له قلبك وخمد، لكن يبدو أنك لم ترد ان تختلط عليك الأمور هذا الصباح، أهملتها، وتناسيتها عمدا. كانت تلف ابتسامتها بشهوة مترعة بالحرمان "أن قلب المرأة مثل ذبابة تحط على كافة الأشياء النظيفة منها والقذرة". تذكرت مأثورة الكلب "الكلب أم رؤوم للرجل". وتذكرت أيضا تلك المرأة التي تركت أطفالها الأربعة وهربت مع غلام أمرد.. إن ألّذين يصابون بالجنون من المحتمل أن يكون الدافع هو التعقل والوعي. لاتجزم بذلك. وان المعضلة متعلقة بخلايا الجسد أم هي الوراثة.. نعم.. لا ليس لها أية علاقة بأيما شيء. إنه قدر محتوم.. تطلق عفطة سخرية، لقد شاهدت القليل ولا يزال امامك الكثير لتراه.. العمر سجل بلا حيثية، ومن حسن حظك إنك لا زلت تملك هذا القدر من العقل، لكي تحيا به وأن لا تغدو مسخرة للصغار ومهزلة للكبار..

غرفتك، هي غرفة اسطورية مشيدة من طين خرافات الشرق، أمست مرتعا للفئران والحشرات المتنوعة، تنظم مسيرات الاحتجاج ضدك يوميا. تهيج في ميدان غرفتك، ترفع لافتات غير مرئية بوجهك "يسقط الانسان" "تحيا الطبقة الكادحة للفئران والحشرات والأخريات". "تسقط الامبريالية". تهيء بوسوستها سمفونية احتجاجية نشازة.. فأر ذكر يصول على فأرة، يختلي بها في مكان منزو. حتى هذه المخلوقات الضئيلة تفعل كل شيء علانية باستثناء المضاجعة، صرصار يقبع فوق ظهر صرصار آخر. يبدو أنه صرصار ذكر، وأنثاه تسحل نفسها على الأرض، ثم تتسلق الحائط بشهوة عارمة. تملأ بعض الكتب ثناياه زوايا

الغرفة، التي صارت مخدعا لمضاجعة الفئران والصراصر كنت تتلصص عليها وتشعر بأن لهاث اناثها يصك أذنيك، والذكور يتنفسون بمشقة.

تتذكر ذلك الرجل الذي كان يعيش وحيدا في أحد بيوت اليهود القديمة، يومها كنت صبيا وهو في الأربعين من عمره.. كانت نساء الحارة يقلن "أنه عازب، يتعاطى الاستمناء في غرفته". كنت تراه يوميا وهو يتأبط رزمة من الجرائد ويدخل الدار، نسوة الحارة كن يرددن ايضا بأنه "يستخدم هذه الأوراق للاستمناء عليها". وبعضهن كنّ يرددن:

-إنه جاسوس أجنبي..

-إنه منتم الى حزب محظور..

-رجل غامض..

وأخيرا اختفى مدة شهر، لكنه عاد، فلم يعد هو، وانما أتوا بجثته للحارة. اتضح فيما بعد أنه كان شاعرا قضى نحبه في السجن، تركه أهل الحارة لمصيره وقامت البلدية بترتيبات دفنه.. بعد ذلك تنحدر صوب سوق الخضار، تبحث عن موضوع قصيدتك الجديدة، كنت تريد كتابتها منذ مدة، سطرت أكثر من مرة عدة أبيات منها. لكن عندما كنت تغادر البيت وتشاهد تلك الحشود، كان ينتابك القرف تجاهها وتعود لتضرم النار في تلك الأبيات بعود ثقاب، كنت تلتهب مع الأبيات وتتحول بدورك الى دخان كثيف وتنحسر في داخل غرفتك، اذ أنها كانت عاجزة تجاه كل تلك المآسي، ولم تكن بمقدورها أن تدونها، أم أنها كانت خجلة في التشخيص. إن تلك الأشعار التي دونتها منذ سنوات، لو جمعتها ولم تطعمها للنيران لأمست عدة دواوين من الشعر ولحصلت الآن من ورائها على شهرة مزيفة.. كان في سوق الخضار هرج ومرج. عرق الكادحين المنساب على وجوههم والمتيبس فوق ثيابهم، قد استحال الى بقع من الملح الأبيض ملتصقة بأسمالهم، تتحول في فضاء ذلك المكان الى بخار،

تختلط رائحته بروائح الفواكه العفنة، تلوث قشور الفواكه المختلفة المرمية على الأرض الناتئة من كل صوب وحدب، حيث يتزحلق بعضهم عليها ويخرّون ساقطين على الأرض "تراب". والبعض الآخر يضحكون على الواقعة اذا كان هذا رجلا، وإن كانت امرأة قد تنفرج ساقيها الى الأعلى ويحدقون فيما بين فخذيها، ويسكبون عليها نظراتهم المترعة بالشبق والشهوة، ثم يمسدون بين أفخاذهم بالأيدي. انها للوحة سريالية، فان كوخيه، "كلا، لقد أظلمت". إنك تشبه تصرفات هؤلاء المتعفنين بلوحات فان كوخ الملتهبة؟! إنهم يظنون بأن إملاء البطون هو الحب أيضا، او عشرات الخدع وألوف القسم لا تساوي عندهم شروى نقير.. إيه.. لكني لا أتبجح بأنني مؤمن بالقسم. لكن هؤلاء هم الذين يؤمنون به. حتى الآلاف من السرقات والقتل في هذا الشرق اللعين، تزوّر بالقسم في المحاكم ويذعن لها القانون،، إن فان كوخ بتر إحدى أذنيه وقدمها هدية لقاء المحبة لحبيبته. لكن هؤلاء يعاملون الحب كأنه خرقة نجسة.. بعض النسوة يهرشن بين أفخاذهن دون خجل ويتعاملن مع الباعة. اثنان من باعة الخضار يشرعان في تبادل الشتائم.. يروى أنه في هذا المكان هزم "شاه مظفر" جحافل الأعداء، وجنب المدينة أهوال غيّهم. والباشا الأعور(*) أيضا لقن أعداءه درسا لن ينسوه.. ثمة إمرأة في الخامسة والعشرين أو في حدود هذه السن، ذات سيقان عارية لحد ركبتيها، ثلاثة من الفتيان يرتدون الكابوي من نوع الجينز، يغمزون لها، انحدرت المرأة صوب جهة مجهولة، وبدورهم أقتفوا أثرها.. مرة أخرى تذكرت مأثورة الكلب..

(١) الباشا الأعور: محمد باشا الرواندوزي، ثار ضد الاستعمار العثماني في القرن الماضي..

٣

منذ سنين طويلة وأنت تكابد التشرد، شببت عن الطوق مع التشرد، أو بالأحرى أنت والتشرد توأمان لأم ثرثارة طائشة. عندما تشردت في تلك المدينة المشوبة بالغبار والتي قذفوك اليها كمبعد، ووأدت فيها سبع سنين من عمرك كموظف صغير، خلالها عاشرت عشرات النساء اللواتي اتخذتهن كخليلات لك، مع انبلاجة كل نهار كنت تستحيل معهن الى بحر هائج من الدموع واللذة، تصخب فيها كافة المَاسي والجوع والأوجاع، انت اكثر هوسا من هذه الناحية من امرأة شبقة.. "أم دلير" اصبحت سمادا لأرض قفراء. الآن تحسد النوارس وتتمناها _ طبعا الذكر منها– كل نورس اقتنى لنفسه نورسة ما ويحتميان بنفثات بعضهما، ماذا لو تمنيت نورسة، ماذا يحدث؟ كلا كيف هذا؟ أنت ابن منطقة خرافية محفوفة بالرّقى والشعوذات وتعاويذ الشرق. حتى انهم يكممون أفواه الذئاب بتعاويذ.

عندما كنت صبيا اذا تخلفت احدى نعاجكم عن القطيع أو لم تعد الى الدار، تهرع جدتك الى "الملا شينه" لكي تكمم أفواه الذئاب عنها. لكن بعد يومين كانوا يعثرون على بقايا عظامها، إنه نمط تفكيرهم وان مجتمعك هو مجتمع الذكور، الانثى عورة، لحد الآن تتقاتل الأسود فيما بينها للفوز بإحدى اللبوات وتنهش في بعضها، والكلاب تقطع بعضها البعض إربا لأجل كلبة ما.. كيف هذا؟ إن امانيك ورغباتك يجب أن تكون أماني ورغبات الذكر، أنت وعل والوعل دائما ينشد الأعالي..

***

استحالت كل الأشياء أمام باصرتيك مياها آسنة وقيئا. إن هذه المياه الآسنة ايضا متكونة من نفاياتهم وبرازهم.. كرة أخرى سلكت نفس الطريق عند الإياب. اذ ليس هناك شيء جديد اكثر من الأشياء التي تشاهدها يوميا. تارة أخرى يقذفون بك الى فرن مدينة ما، ليس في مقدورك أن تفلت منه. تنفذ مهمتك رغما عن أنفك.. يحشرونك بين أربعة حيطان في دائرة ما.. يوميا: صباح الخير، كيف الحال والأحوال.. بصحة جيدة والحمد لله.. تضيق بك الدنيا أثر ضجر قاتل. يسمعونك أخبار عشرات الكوارث اليومية المؤسفة التي يمجها الذوق اذ لا طعم لها ولا رائحة. تصبح خميرة لصمتك القاتل اكثر وأكثر. تودع بعضهم بابتسامة مزيفة. تلقي بنفسك بخمول وكسل في احضان الشوارع والطرقات العنيدة في القيظ والزمهرير، والشوارع تتمدد تحت اقدام السابلة البلهاء، وتدفعهم صوب شتى الأماكن الى حانة ما او ملهى، او بيوتهم، او بيت مشبوه، او مؤسسة سياسية وأمكنة اخرى. ام يهرعون لتلبية احتياجات زوجاتهم في السوق، عندما قفلت راجعا في الطريق نفسها، كانت المرأة التي تقف في الباب قد ارتدت هذه المرة فستانا اسود شفافا كجناح الذبابة، وقد شدت خصرها الأهيف بيديها وهي ترمقك بعيون كليلة حانية مترعة بالحزن.. منذ فترة طويلة وانت تموت من اجل امرأة ما، وقد مضت اعوام عديدة منذ ان تركتك "أم دلير" وحيدا. كنت تستمني بحرمان النسوة الوحيدات. وصلت قبالة المرأة المتشحة بالسواد، وهي بدورها انسحبت من الباب بعد ان فتحت الباب على مصراعيه، صرت قبالة الباب بخط افقي، تقرفصت المرأة على مرتفع وسط فناء الدار. هي بعينها التي تبحث عنها منذ عدة أيام، ربما بدورها تعرفت عليك، لذا بدر منها ازاءك هذا التصرف. أم اختلطت عليك الأمور

وهي تشبهها؟ أم هي عاهرة؟ أردت ان تبعد تلك الفكرة عن ذهنك.. ولكن استنادا الى كل الأدلة التي ساقها صديقك (جمال) فإن هذا البيت هو بعينه ذاك البيت الذي استـأجرته هي.. بعد فوات كل هذه السنين من الفراق، أية أمنية او رغبة عارمة دفعتك لتهيم إثرها؟ ربما كانت مثل تلك المئات من الرغبات في المدينة المغبرة كنت تتبعها، كنت تلتقي بشتى صنوف النساء وتذوب معهن في لجج الشهوة واللذة ،ان المرأة لا تملك الشعور القومي، رغباتها هي شعورها القومي أينما كانت في هذا العالم. لذا لا تأبه بمن تقترن، حتى لو كانت بعيدة آلاف الفراسخ عن موطنها الاصلي، وطنها هو غريزة طائشة.. ولجت الدار بترقب وحذر، كانت هناك في غرفة المرأة لوحة شبه سريالية معلقة على احد الجدران. امرأة ورجل عاريان يلتفان حول بعضهما البعض كشجرة اللبلاب، يحملقان في سماء داكنة وملوثة. فاغرين فاهيهما نحو الأعلى، كانت هناك على مقربتهما شجرة جوز عقيمة ظاهرة للعيان، تتضرع للسماء بأغصانها المتيبسة، سرب من الغربان يحملق في المرأة والرجل العاريين. تمنح الحياة والاثاث داخل الغرفة مغزى عميقا..

ان الانسان في هذا الشرق مدجج بالمخاوف، حتى اصبحت هيموغلوبين دمه، يشعر بالفراغ من دون الخوف، اذا امضى يوما واحدا من دون خوف، يحس انه فقد شيئا مقدسا عزيزا على نفسه. لذا ليس بمقدوره بأي شكل من الاشكال ان يكن صادقا مع نفسه، لأن الظروف الاجتماعية تحول دون ذلك. أم ولربما يهان ويهتك، وان هناك عددا لا يحصى من السعالي والعفاريت تقبع في دخيلته، بوده أن يطلقها يوما ما.. أو ان يكشف النقاب عن خفاياه المحفوفة بالعار والرذيلة– اذ انها عار وفق العادات والتقاليد الاجتماعية– لذلك اذا قال احدهم في هذا

الشرق الخرافي بأنه صادق مع نفسه، فإنه كاذب من قمة رأسه الى أخمص قدميه، تخبئ في جمجمتك العديد من الاسرار المشينة تقشعر لها الأبدان. تريد ان تعلنها، غير انك ورغم ذلك ليس بمقدورك ان تبثها حتى لدى امرأة عاهرة..اذن ما الذي يفعله الذين يدّعون النبوة؟ هل بحوزتهم تلك المصداقية ولمن باحوا بأسرارهم المليئة بالرذيلة؟ قد يجوز للطبيعة أم للطيور ان للأحجار والأشجار..!

جراء رؤيتك لتلك الحالة في بيت المرأة المتشحة بالسواد، نسيت كافة الاحلام والتهيؤات الممكنة وغير الممكنة، تخلصت منها، خشيت ان يفسر الناس تصرفك هذا خطأ كما فسروا من قبل موضوع "الانهيار"، شيعتك المرأة المتشحة بالسواد بالحسرات والعبرات. كانت تحدق فيك، وتوسلت اليك ان تزورها مثل هذه الزيارات: "ان العبرات ودموع الندم هي أنيسي وحبيبي".. "لندخل في البعض حتى نذوب في بعضنا البعض". كل الاشياء تبدأ من الذوبان وتختم بالذوبان. والذوبان يغسل الآثام والأدران في اكثر الأحيان. كانت المرأة المتشحة بالسواد، ترتب هندامها اثناء ما كانت تتكلم وتتضرع، وتتحسس جسدها بيد متلهفة، ربما كانت يد حياتها الوحيدة والباردة؟! لذا هربت من نظراتها المترعة بالحزن..

***

مرة أخرى وجدت نفسك امام تلك الدائرة التي تعلقت قائمتا الكلب بحاجزها الحديدي المشبك، وقد نجا الكلب، والشيخان اللذان قاما بانقاذه كانا يجلسان القرفصاء بجوار حائطها، يبحلقان بعيون مترعة بحرمان الكهولة الى طالبات الكلية، عندما كن يتفسحن بأفئدة مليئة بهوس المراهقة. سرت في اعماقك رعشة، فاحت منها رائحة الحسرة أثارت في نفسك ذكرى مليئة بالحزن الأخضر، اعترتك ابتسامة مضببة،

بسمة تتأرجح بين الحبور والشقاء، كزنبقة صفراء أينع أريجها بين الجحيم والجنة، بين الفينة والفينة، تتمايل نحو احد الجانبين، وفي آخر المطاف تذبل بلهيب الجحيم ولا تطالها نسمة الجنة. في العام الذي التحقت فيه بالجامعة لم تكن تأبه لأي كان، وكنت تسمع بأذنيك وهم يقولون:

-إنه إنسان غامض..

-إنه إنسان قروي..

-إنه حمار، وثور..

لم يكونوا يدركون بأن سريرتك لما تزل مدججة بالسعالي والعفاريت وأساطير الانسان الجبلي، وتأقلمت بوشائجها، اضافة على ذلك ان الكثير من مآسي مجتمعك لا تزال تحط بثقلها على كاهلك، كحيوان خرافي وتهددك بالفناء. تلك الفتاة المكتنزة التي احتفت بمقدمك مبتسمة منذ الوهلة الأولى. كانت هي"نوال"، صبغت وجهها حمرة دلال مائلة الى البياض، كانت بريق عينيها السوداوين، ينسي هموم وآلام انسان مثلك وقالت لك:

-اني معجبة بالانسان الجبلي، عندما تأكدت أنك جبلي، لم أتردد ودون خجل، جئت لأتعرف عليك دون ان تبادر انت بذلك..اسمي "نوال احمد"، من كربلاء، في المرحلة الثانية في قسم السياسة.. ولكن أنت..؟.

أجبتها بابتسامة باهتة:

-قسم القانون..

أردفت هي بقهقهة شبقة:

-اذن نكمل بعضنا بعضا..

-ربما..

قالت بضحكة مغناجة:

-يا سيد، ربما ماذا؟ لم انت متشائم هكذا..؟.

في احدى المرات قرر الطلاب ان يقوموا بسفرة الى بحيرة "الثرثار" في العطلة الربيعية، أردت ان تعزل نفسك عن هذه السفرة، لكن "نوال" ألحت وأجبرتك على الموافقة،عندما وصلتم وحططتم الرحال هناك، شرعتم بالترتيبات اللازمة في مكان ما. وهي بدورها امسكت بيدك بفرح مراهق وسحبتك صوب ضفة البحيرة. ثم القت بنفسها في الماء في منطقة ضحلة بكامل ثيابها، ابتل فستانها الاحمر بالماء، وكانت تغرف من الماء بيديها مقهقهة وتقوم برشه عليك. ابتعدت عن رذاذ الماء عندما خرجت من الماء سرت في اعماقك رعشة هائجة، قد التصق فستانها الاحمر بجسدها التصاقا، كان جسدها البض وكأنه أيقونة اغريقية يستهزئ بسائر كينونتك تحت ذلك الفستان، وتجسد في حرمان الطبيعة، ثم استدارت حول نفسها بنظرات كليلة وشهوانية ذات مغزى، كانت عيناها المليئتان بريقا تحطان كعصفورين عجولين على وجهك، ويشرعان بنقر جلده لحد الادماء، دون ان تحس بالألم، ونهداها كسجينين ثائرين على وشك ان يحطما باب سجنهما بأيد عارية، وان يشقا الفستان الاحمر ويندلقا منه وينعتقا، أما بطنها المكور فكان يتخبط بتؤدة كحمامة مذبوحة عند سرتها، ردفاها أشبه بردفي مهرة ذات ربيعين، يتحركان تحت الفستان من جراء الغنج، عندما خرجت من الماء كانت تلهث لهاثا مزيفا، بحجة انها مرهقة وتتعثر في مشيتها والصقت نفسها بجسدك، ابتعدت عنها خجلا لكن جسمك قد تبلل حتى النصف، ثم بادرتك قائلة:

-أرغب ان أتعلم لغتك..

-لماذا؟

-احتاجها في المستقبل..

رغم انك لم تدرك كنه ما قالته وقتئذ، لكن عندما تخرجت من الجامعة ادركت ما الذي كانت تقصد من وراء ذلك. كنتما الآن تتممان بعضكما حسب كلامها..

الفتيات البضات كن يخرجن الألسن من هذين الشيخين، وهما بدورهما يرمقانهن بنظرات متلظية ومترعة بحياء الكهولة، ان المرء مهما تقدم به السن، فإن رغباته تشحذ اكثر فأكثر، تكون لدنة مثل أديم جسده، يرغب في كل شيء طري ولدن، بالنسبة للعمر هي مسألة طردية، كلما تقدم بالانسان العمر كلما أزدادت رغباته تلظيا، أو بالاحرى كلما اتجهت خلايا جسده نحو الضمور، كلما ارتقت رغباته نحو القمة..

الفتيات الجامعيات مكتنزات الجسد كن يرمقنك مع قهقهات شبقة، أثارت فيك رغبة عارمة للمرأة المتشحة بالسواد، تشعر في مثل هذه الحالات بألم حاد، يدغدغك من الاعماق، مثل ذلك الألم الذي ورثته من ريعان الصبا، عندما كنت صبيا كانت أمك توبخك كل مرة:

-حذار يا ولدي سوف تقضي على روحك..

كنت وقحا لدرجة انك كنت تبتر أذان جراء كلاب القرية بشفرة حلاقة، وكانت تصل بك الصفاقة ان تغسل الكون بالسب والشتيمة- لازال هذا ديدنك- الى ان تشمل حتى والديك، عندما كان يستبد بك الغضب كنت تهردع الى السلة المليئة بالرغيف في البيت، تقذف بما فيها من ارغفة يمينا وشمالا، رغيفا اثر رغيف كقرص الرياضة في الهواء، والرياح

الهابة كانت تساعدك في توزيعها على بيوت الحارة، بعدها كنت تهدأ الى ان ابتليت بذلك المرض والتصق بك عدة سنين..

***

ان تعبك هو اسطورة بعينها، ليس بوسع احد ان يرويها، وتستقر في احدى الحانات الليلية القذرة، وحين تفيق تجد نفسك بأنك الزبون الوحيد لليالي المدن المتسخة، وقد كرعت قربة من الخمرة، تخر على وجهك مرات عديدة، قبل ان يستقر بك المقام في المكان الذي يأوي تشردك، وتترع ملاحمك بالرضوض والخدوش وتتضرج بالدماء، ويتمرغ جسدك في الوحل، انت الوحيد الذي ظل على هذه الشاكلة حاليا، معدم وتتضور جوعا، لكن الذين انهاروا معك في النكسة هم الآن ميسورو الحال وأمسوا من الوجهاء، والمقاولين، اصحاب الثروة والتجارة، مرابين ومنافقين ومن سماسرة الاعراض، حتى أنهم اصيبوا بالشذوذ فتراهم يغررون بالغلمان، اذ نفضوا أيديهم عن كل المثل، إسود سجل أفعالهم، حتى الشيطان يئس منهم. عندما كانوا هناك في صفوفهم، كانوا اكثر اجلالا واحتراما منك، متشدقين متنفذين.. كانوا يتبجحون بأنهم سوف يصنعون التاريخ،هاهم الآن تراهم كيف وبأية وسيلة يعيدون صياغة التاريخ حاليا.. لا ريب انك سوف تجد نفسك هذه الليلة ايضا وقد غرفت في كؤوس العلقم. سوف تختلط قضية الكلب والمرأة المتشحة بالسواد والنوارس والرجل الأعزب في بيوت اليهود القديمة، والأطفال المشردين بالسواد أمام المطاعم، مع رائحة المكر لتلوث الكون برائحة العفونة..

اضطرابك هو من جراء حلم ليلة أمس، يبدو أنك سوف تعتذر لعدم سرد قصة حلمك هذا لنا، قد يكون حلمك ليس بذات غرابة عندنا، لكنه يتنمل تحت جلدك ويقض مضجعك.. يستحيل حلمك هذه الليلة ايضا في

كأس الخمرة، الى شاشة كبيرة تتبارى عليها مناظره، انها ليست بالليلة الأولى التي يتحول حلمك فيها الى كابوس يحط بثقله على صدرك. بل انه منذ سنوات يتكرر هذا الحلم ثلاث مرات في الاسبوع. دون ان يطرأ عليه اي تحول، كأنه فلم سينمائي يعاد عرضه على شاشة ذهنك، والحلم كما هو:-

في قرية ما، كأنها يوم الحشر.. لا.. لا.. انها هرج ومرج، أهل القرية قد خرجوا عن بكرة أبيهم من بيوتهم الطينية وهم عراة، يشدون الخناق على الطرقات والدروب، انها صخب وضجيج، كأنهم اسراب نمل محاطة بالمياه والنيران، مرتبكين، ينقضّون على بعضهم بعضا، بعض النسوة الثرثارات يعتلين كواهل بعض رجال ضخام الجثة والكسالى، يتقاتلون، او يشبعون بعضهم بعضا بالسب والشتيمة، رغم هذا لا زالت تسيل من اساريرهم النشوة، والأطفال يلعبون بعيدا عن الحشد ويضحكون عليه استهزاءا، يسخرون من عقول الكبار، وقد اكفهرّت صفحة السماء، تملك الجمع الهلع، الحشد العاري متقرفص، وبعضا منهم ينكمش على عضوه التناسلي، والأخرون فاغرين أفواههم بالعويل والعياط نحو السماء، كل واحد منهم أمسى مسخا لحيوان ما. يهاجمون بعضهم بعضا ، ويتضرجون بالدماء، ووالدك صار واحد منهم، كان يحاصر امرأة عارية، بغتة مسخت المرأة في هيئة سعلوة، وقفزت على ظهر والدك، والتفت خصيتيها الضخمتين من حول رقبته وصرعته، فعادت السعلوة الى هيئة المرأة ثانية، ثم ارتمت بين احضان رجل كهل.. إنها هرج ومرج، مع هذا كانوا سعداء، على حين غرة زعقت فتاة مراهقة وقالت:

-انظروا، انظروا..

سقطت في أيديهم وكانوا يحدقون في الاتجاه نفسه، كان هنالك كلب

وكلبة ملتصقتين ببعضهما، وقد استطال لسانهما امتارا عدة، ويلتفان حول القرية.. والأطفال كانوا ينهالون عليهما ضربا بالعصي والحجارة.. لكنهما لم يكونا يستطيعان الحركة في مكانهما قيد أنملة كانا غريقين في لظى الشهوة. لم يكن يندّ منهما ولا نأمة. بعض الوقت كانا يرمقان الحشد لاهثين، وكل واحد من أفراد الحشد كان يضع يديه بين فخذيه، والصبية المراهقات كن يغمضن الجفون ويشرعن في دعك أجسادهن. بدأ الحشد بالتراخي واحدا تلو الآخر، وهدأ الهرج والمرج، كل واحد منهم كان يقفل راجعا الى داره مطأطئا رأسه، فساد الصمت في القرية، أما الكلب والكلبة فكانا سعيدين في لهاث الشهوة، فجأة انفصلا وشرعا بالهجوم على بعضهما بالنباح و العض، وفي لمح البصر ظهرت زمرتان من الكلاب كتدفق البخار، شرعتا بالاحتراب فيما بينهما، إلى أن اباد بعضهما البعض عن بكرة أبيها، الأطفال بدأوا ينهالون على الكلب والكلبة وقاموا بمطاردتها الى أن تواريا عن الأنظار..

***

٤

تبكي الآن على أعوام عمرك الخمسة عشر، التي صارت هباءا منثورا، عندما انخرطت في صفوفهم كان للتو قد نبت شعر ذقنك، لكن عندما قفلت راجعا الى المدينة دون طائل، كان الشيب قد وخط فوديك. اكثرهم لقي المصير نفسه، عندما التحقوا بصفوفهم كانوا في ريعان الشباب، وحين عادوا كانت كواهلهم مثقلة بآلاف الحسرات والحرمان والشيب قد وخط فوديهم، وفقدوا أجمل ايام عمرهم،لم يكونوا ينتظرون ان تلتفت اليهم نساء حسناوات، لذا حادوا عن السبيل وانحرفوا وصاروا من مريدي الحانات والملاهي. خمسة عشر عاما محفوفة بالجوع والقلق والخوف والملاحقة المستميتة ليست هينة.. كنت تريد وقتئذ أن تقلع جذور فحولتك، كي لا تفكر في الانثى والمرأة والزواج، اقترنت بذلك الهدف، وان لا تحيد بك هذه النزوة عن الطريق، وتلتهي بالزوجة والأطفال، وتصبح محجنا في يد اليأس والقنوط، وتستحيل عائقا وتؤدي الى تداعي عزيمتك، بعد ذلك تبحث عن ألف تبرير وتبرير لإنهيارك، عندما أرشدوك الى الطريق في تلك الليلة المدلهمة، الحالكة، كدت تقضي نحبك في حدود المدن، لكن صدفة كانت أم بسبب شجاعتك نفذت بجلدك، كانت ليلة ثلجية قارسة لم يكن في وسع اي كان ان يهجر احضان الدفء والكسل والهدوء، ويسلك طريق اللاعودة، في تلك الليالي القارسة، سوى الذين يحملون بين جوانحهم رسالة مقدسة كهذه، قطعت في تلك الليلة القاسية مسافة خمس او ست ساعات من طريق اللاعودة، محفوفة

بالقشعريرة والهلع والقلق والجوع. حين كان يشتد بك الجوع كنت تلتهم ثمار الصبار والاشجار البرية، او تلوك الأعشاب الجافة وتمتص عصارتها، ضيق الجوع عليك الخناق في تلك الليلة، وصلت الى احدى المزارع المهجورة للتو. مددت يدك في وسط الحلوكة، تلمست شيئا رطبا ولينا، قلت في قرارة نفسك انه خيار او شيء من هذا القبيل، شرعت بالتهامه في الطريق بتلذذ، إلى ان وصلت الى احدى القرى، هناك الشيء الذي كنت تلتهمه على طول الطريق، لم يكن سوى يقطينة صغيرة شبه عفنة، كنت جائعا لم تكن تهتم لأي شيء كان. أصابك الغثيان والقيء الى الهزيع الأخير من الليل، ان ديدنك رسالة مقدسة "كن صامدا وحين تصل الى مبتغاك سوف تنساه". كنت صغيرا لذا عندما كانت تتعثر احدى قدميك، او كنت تنهار وتسقط في هوة واد ما، أو جبل، ويثخن جسدك بالجراح والآلام، كانوا يقولون لك "لا يهم عندما تكبر سوف تنسى". لكنك كبرت وترعرعت الجراح والآلام معك جنبا الى جنب، وعندما كان يشتد بك الظمأ في تلك الليلة تعب الماء من مياه الأمطار المتجمعة، اذ حيث تحمل نفسك أمنية عظيمة "هيا كن صامدا، عندما تصل الى هدفك سوف تنسى ذلك". الى ان وصلت اليهم، لكن الذي لم يكن في حسبانك قد حدث، أرتابوا في أمرك، كانو يدنون منك باحتراز، او يرمقونك من بعيد كأنك عنزة مصابة بالجذام، ولم يدعوك تخلد الى الراحة هناك بعض الشيء. اودعوك على الفور في احد الكهوف لحين انبلاج النهار، عند صباح اليوم التالي باشروا باستجوابك:

–من أين جئت؟

–ماهو دافع مجيئك؟

-من الذي بعثك لكي تتجسس علينا؟

-أنت من الأغيار..

-هل بحوزتك دليل يثبت أنك ذو نية حسنة وتريد ان تكون معنا..؟

-اذا لم تصارحنا بالأمر سوف نمزقك شر تمزيق..

ان استجوابهم هذا لم ينل من عزيمتك. اذ منذ زمن بعيد كنت جنديا مجهولا تعتنق عقيدتهم بالتفكير فقط. كنت مصرا على انهم ربما يحققون امرا ما، وتلتئم جراحاتك القديمة والجديدة، كنت ايضا تجاهد بإصرار ان تكون واحدا منهم. اذ كنت صادقا مع نفسك. ولم تدفعك أية قوة، باستثناء قوة الذهن الوعي، كان الحق معهم في ان يذيقوك هذا الإيذاء وان يرتابوا من أمرك، ام فقط كانوا يرتابون منك، لإن مستوى تفكيرك كان أسمى من غالبيتهم، كانوا يخشون ان تحتل عرشهم الملكي، رغم هذا كنت تتلذذ فرحا بتعذيبهم إياك. كمن يريد ان يتطهر من آثامه، اتضح لك بأنهم حذرون في مهمتهم، كانوا مصيبين في تصرفهم هذا بغية تحقيق غايتهم المقدسة. تلك الغاية التي انت ايضا سلكت هذا الطريق بمئات المشقة من أجلها. كانوا يخشون من تجاربهم السابقة، ان لا يقعوا في مخاطر جمة تارة أخرى، وترقد أمنيتهم هذه طريح الفراش، وتتماثل للشفاء بعد سنوات عديدة، دعهم يذيقونك سوء العذاب، انت لا تملك شيئا سوى العذاب، سوف يتضح لهم الأمر بأنك قد وضعت دمك على كفك من اجل تحقيق تلك الغاية، كان الحق معهم أن يعاملوك على هذه الشاكلة، اذا لم يكن هكذا فسوف تذهب جل محاولاتهم ادراج الرياح، لأن كثيرا من الأغيار انضووا تحت لوائهم، وفتكوا بهم مرات عديدة، وبالتالي كانوا يكشفونهم وينالون جزاء شر أعمالهم، دب اليأس فيهم خلال استجوابك لمدة شهر، لم يثبت شيء لهم، فتركوك وشأنك،

صرت طليقا تعيش في المنطقة التي هم يتواجدون فيها. سررت لذلك.. اذن كيف تعيش؟ خطرت على بالك بأن تمتهن مثل الآخرين من امثالك التهريب. اذ الكثير منهم جاؤا للانخراط في صفوفهم، لكنهم لم يستطيعوا ان يتأقلموا مع الوضع فأمسوا مهربين. لكنك أحسست بأن الاقدام على هذا العمل سوف يجعلك تفرط في مبادئك وتدوسها بالأقدام، اخيرا استقر رأيك على ان تصبح عاملا زراعيا أجيرا في احدى القرى النائية. اذ ان قرار العودة كان شيئا محالا، لأنك جئت لكي لا تعود ابدا..

***

الآن تتحسر على سنين عمرك الخمس عشرة التي ضاعت وذهبت ادراج الرياح. تعود بداية هذه السنين الخمس عشرة الى عام ١٩٦٥، حينما كنت طالبا وانتميت الى صفوفهم في المدينة، لكن رغم هذا اصبحت موضع ريبتهم.. وفي النهاية، صرت حاصدا أجيرا لدى العمدة "زوراب". في الايام الأولى للحصاد كان الحاصدون والحاصدات يستهزأون بك، ويسخرون منك، اذ لم تكن ماهرا في تلك المهنة وكانوا يقولون لك:

-أنت ابن المدينة فما لك وهذا العذاب؟ كنت تأكل الخبز المنقوع وتشرب الماء المثلج، لعل بوسعك أن تقاوم هذا القيظ؟ عد الى المدينة وأعمل حمالا اشرف لك من هذا الحال..

عندما كانوا يسمعونك هذا الكلام، كانت عيناك تغرورقان بالدموع، كنت تشكك في رجولتك وانسانيتك، كنت في ريعان الشباب وماذا جلبت على نفسك، لم تنم لك بعد اللحية كنت تفكر في معاناة وشقاء هؤلاء الفلاحين،كنت تنكب على قراءة الكتب ليل نهار، لتعثر على جذور ومعين

آلامهم، كنت تحلم بذلك العالم الاخضر الذي سوف يستجد ليل نهار، كأنه قرن من الزمان وانت تتلظى في أتون هذه الآلام، لذا قررت الإنضواء تحت لوائهم، وقد أرتابوا في امرك واظهروا تذمرهم إزاءك:

–من أين جئت؟

–من الذي بعثك لكي تتجسس علينا..؟

–اذا لم تصارحنا بالأمر سوف نمزقك شر تمزيق..

أخيرا قررت أن تصبح حاصدا أجيرا، والفلاحون بدورهم كانوا يتهكمون منك ايضا. كان قرار ساخن يتأجج في أعماقك، كان عليك ان تبهرهم بما تقدم عليه.. كنت تترصد أيدي الحاصدين تحت ذلك القيظ يومين او ثلاثة ايام، كان العرق يغسل جسدك ويذيبهُ. وينقص مقدار كيلوين من دمه ولحمه وشحمه. وبالأحرى يبدأ وزنك بالنقصان مقدار كيلوين، ويتحول هذا المقدار من دمك ولحمك وشحمك الى عرق ينساب فوق الارض، وتصير غذاءا لحشرات وديدان الأرض الجائعة. بعد مضي مدة ايام من الظمأ ولفحات القيظ، استطعت أن تحصد نصف ما كان يحصده الرجال الماهرون والمتمرسون على ألأقل، رويدا رويدا بدأ الرجال والحاصدات نصف الشبقات يحملقون فيك بإندهاش. كيف تعلمت مثلهم أن تجمع باليد اليسرى حزم السنابل وتحصدها بالمنجل في اليد اليمنى. اصبحت في بحر شهر واحد اكثر مهارة واقداما منهم، تحصد معهم جنبا الى جنب، كان احد الرجال اكبر عمرا يصيح ويقول لك:

–هيا.. يا استاذ.. بارك الله فيك.. اسرع فالشمس على وشك أن تتوارى خلف القمم..

كنت تجهد ذراعيك اكثر ويذوب دم ولحم وشحم جسدك، فتنساب على

الأرض المحصودة وتتحول الى غذاءٍ للحشرات والديدان الجائعة.

كان للتو قد نما الشعر في ذقنك، كنت وسيما، الفتيات الحاصدات قد تعلقن بك. لأنك ابن المدينة ولم يلفح القيظ بشرتك بعد، ربما كن يتزوجن فتيان القرية مرغمات، أم عنوة وفق العادات والتقاليد الريفية، صرت معين حسرات اغلبية شبان القرية.. كن ينظرن اليك بنظرات شبقة خلسة، ثم يشرعن بالمشادة بصدد جمع حزمات السنابل التي كنت تحصدها.. مكثت في تلك القرية مدة ثلاثة أشهر، صرت موضع احترامهم واعتزازهم. عند المساء بعد العودة من اعمال الحصاد، كنت تجمع حولك أهل القرية كبارا وصغارا بعد صلاة العشاء، وتتحدث لهم عن السياسة، كانوا يرهفون السمع، كانت أحاديثك جديدة على اسماعهم، وغريبة، وتمس نياط قلوبهم، تمنحهم الانشراح وتدغدغ رغباتهم، تتلو عليهم أشعار (نالي وحاجي قادر كويي وكوران)..

–والله يا استاذ كلامك حلو ودسم. لم يسمعنا احد قبلك مثل هذا الحديث.

وآخر يتنفس الصعداء ويقول:

–لا فض فوك يا استاذ، اذا لم يكن الرجل عالما هكذا فماذا يفيد. لكن التدخل في الأمور السياسية لقباحة بعينها..

كنت تتحسس معاناتهم وشقاءهم وتحرضهم على ان لا يرضوا بأحوالهم المعيشية وان ينحازوا اليهم.

٥

عندما انخرطت في صفوفهم كان شعر ذقنك ناميا لتوه. وعندما قفلت راجعا كان الشيب قد وخط فوديك. وكان حياة مليئة بالضنك والمصائب هدية يديك. تزوجت هناك ايضا، زَوجَّك (العم محه) من ابنته الوحيدة "آفتاو". لم تكن برفقتك لا "دلير" ولا أمه عندما عدت الى المدينة، كلاهما تحولا مع كوخكم المجاني الى رماد في بحر يوم واحد.. هذا الصباح حين ولجت غرفة المرأة المتشحة بالسواد، كانت تغامزك كما في السابق بعيون متلهفة، كانت هناك صورة مؤطرة في غرفتها، وكان صاحبها يرمقك بعيون مغتاظة، كأنه كان يحذرك أن لا تطأ زوجته أمام عينه، أسوة بالذين يرتادون غرفتها، كان شابا وسيما، ذا عينين زرقاوين، وكان يعتمر قلنسوة ملفوفة، بيشماغ مائل، ويريد ان ينفلت من الإطار، تعرفت عليه في الحال. كان هو "سردار فتاح هموند" بعينه. فيما مضى كانوا يسكنون البيت المجاور لدار عمك مع بيت "هه تاو" بيد ان امارات الغضب والطيش والجموح لما تزل منطبعة على محياه، عندما سألت المرأة المتشحة بالسواد من يكون هذا؟

اجابت باندهاش:

–انه زوجي.. وقد هجرني منذ سنوات..

تبين لك بعد ذلك بأنه تضرج بدماء شبابه، انه ايضا مثلك ذهب كفاحه ادراج الرياح، انك مبتلى بزمن كسيح، في ذاك اليوم الذي وصلك نبأ تزويج "هه تاو" كان الوقت مساءا، والثلج يكاد ان يدمر اكواخ المعوزين،

كنت راقدا في احد مستشفيات المدينة المسكونة بالغبار، وقد عاودك المرض مجددا، وكنت تئن تحت وطأة الأوجاع، وقد استحال الطبيب فوق رأسك الى ما يشبه جلاد اما المرضات فكن يأتين بنهود نافرة وسيقان عارية وحلوقهن المليئة باللبان، كن يزرقن إليتك بحقنة مورفين غاضبات، وأما المرضة السمراء البدينة فكان المرضى يخفون انفسهم تحت الاغطية عند ظهورها خوفا منها، كانت بدورها تدخل يدها في مقدمة أحد الرجال المرضى، وتغمض الجفن هنيهة وتتسع منخراها.. يومها اقتلعت قصة حبكما عن الجذور تلكما العاطفة والعشق الجياشتان، اللتان لم يكن في اعتقادك يوما ما بأن اية عاصفة اسطورية، بمقدورها ان تسقط ورقة واحدة من شجرتهما، كانت تعاند الطبيعة مثل الجبال الشم التي تسيج قريتكم، ولا تقبل الخنوع، كنت مطمئنا من جموحك، لكنك عثرت على "هه تاو" بعد سنوات طويلة على هذه الشاكلة..

كنت غضا غريرا عندما قصدت معقلهم. عدت الى قريتكم في العطلة الربيعية، ذهبت اليهم عليلا، لا لكي تظل معهم وانما كان الغرض معالجة مرضك، وكان يقول والدك ان طريق المدينة محفوفة بمخاطر جمة، وكان معقلهم بعيدا عن قريتكم عدة فراسخ، وقالوا أن طبيبا ماهرا قد التحق بصفوفهم.. قالت أمك لوالدك في احدى الليالي:

–غدا وفي الصباح الباكر ركب "قاره مان" حمارا، وجرب هناك ايضا، عسى ولعل ان يكون شفاؤه على يديه".. في ذات الليلة استعار والدك من "عم فيض الله" حماره لتسافرا غدا الى هنا، انشرحت كثيرا عندما اشرت والدتك حمار "عم فيض الله". كنت تظن أنه ليس حمارا عاديا، بل انه حصان اسطوري، وان اطفال القرية سوف ينظرون اليك بعين الاعجاب، ان قاره مان قد امتطى صهوة حمار العم فيض الله وقصد

المناطق الشمالية، اذ سيرة حمار فيض الله كانت على كل لسان، وكأنها احداث ثورة شعبية يسردونها ويرددون وقائعها لغرض ما، رغم انه كان حمارا عاديا، ولأن صاحبه كان فيض الله لذا كان اهل القرية يتندرون عليه، كمثل اي حمار آخر كان يمتلك أذنين طويلتين، ودفة كتف عريضة وعينين زائغتين، وكان قوي البنية، نادرا ما كان يحدث له اي مكروه، لكن في احدى المرات هوى من أعالي الجبل في شمال القرية، وكان فيض الله ممتطيا ظهره، باستثناء فيض الله الذي أصابه بعض الرضوض في بعض أجزاء جسده، فلم يصب هو بأي أذى، حيث وقف على قوائمه الأربع وكأن شيئا لم يحدث وبدأ يقضم العشب والكلأ دون مبالاة ويرمق الحشد الذي هرع الى مكان الحادث..

إن حكاية هذا الحمار طويلة، وقد عاصر الكثير من الكوارث لهذا القرن، وقد رأى بأم عينيه مصائب شتى وذات علاقة بسيرة فيض الله.

عندما نزح من احدى القرى النائية، واستقر في قرية "كاني طومة" عند(العم نادر) ليقوم بخدمته.. كان (العم نادر)يملك أتانا، وقد انجبت قبلها بسنتين أتانا صغيرة، وفي السنة التي وصل فيض الله القرية، وضعت جحشا ذكرا فأهداه له العم نادر، والعم كان له بنت اسمها "سه‌باو" كانت فتاة بضة الجسد، ذات عيون عسلية حلو المعشرها، وفيض الله بدوره كان شابا يافعا، طويل القامة، ذا بشرة بيضاء، وكانت شامة سوداء تزين خده الأيسر، لكنه كان خجولا، ربما كان بسبب بلادته نوعا ما، كان يتحدث نادرا مع "سه باو" وان تلك الاحاديث كانت تدور حول الاعمال اليومية وتنفيذها، وكانت لا تتجاوز طلب الزاد او أدوات الفلاحة.

كان يتلعثم في الكلام ويحمر وجهه جراء ذلك، امضى عدة سنوات

على هذه الوتيرة، وكان الشوق يزداد في قلبه. وبين الفينة والفينة كان العم نادر يخدع فيض الله بكلام معسول ويقول له:

– ياولدي اعرف انك متيم بـ"سه باو" ولكن لا تستعجل واصبر فلن أزوجها احسن منك، اذا عاشت "سه باو" ستكون من نصيبك، وان ماتت فتكون من نصيب التراب، لم يكن يدرك بأن كلام عم نادر هذا لم يكن سوى نوع من السخرية، سوف يتندر به صغار وكبار القرية في اليوم التالي. وكان الاطفال والشبان يقولون له هازئين:

– ماذا تريد بعد يا فيض الله؟ ان ماتت "سه باو" فتكون من نصيب التراب، واذا عاشت فسوف تكون من نصيبك.. وكان يكاد ان يطير فرحا بهذه الاقاويل، ويأخذ الموضوع مأخذ الجد، لذا كان جل تعبه وكده منصبا على خدمة بيت العم نادر، مقابل اطعامه واكسائه، فلو اجتمع شخصان من اهل القرية العاطلين، تحت أفياء احد الجدران، لأصبح ثالثهما اغتياب الآخرين:

– يقولون أن فيض الله يضاجع أتان عم نادر..

– أفضل من منة عم نادر..

– ها.. ها.. إهي.. إهي.. هأ.. هأ.. هأ..

– فقط أنها لا تتكلم.. وإلا كانت..

– والله لو علم بذلك لربط بذيله صفيحة فارغة..

– تاه.. تاه.. تاه..

– كيف تروض "سه باو" بهذا الأبله؟..

– لم لا تقول بأنك الفارس الأوحد لتلك الفرس..؟!

– إني احمل على كتفي كيسا كبيرا من الحنطة وكأني أحمل جعبة تبغ..

– سوّد الله وجهك مثل قا ع القدر لأكاذيبك وترهاتك..

بعد فترة وجيزة تزوجت "سه باو" من شخص آخر، بعدها ترك فيض الله العمل وغدا بائعا جوالا في القرى وتائها بينها.. خلال السنوات التي غـدوت واحـدا منهم، وبعـد ان صُـرِع فـيض الله بطلقـة طائشـة في الطرقات، رأيت حماره سائبا، بجسده الذي اثخنته الجراح بين المزارع..

في تلك الليلة بعد ان اقتنع والدك بكلام أمك، استعار الحمار من فيض الله "عسى ان يكون شفاؤه على يد طبيبهم ؟!"..

وفي الصباح عندما افقتم من النوم ركَّبك والدك مع نشيج البكاء على ظهر الحمار، وشفتاه ترتجفان والدموع تنساب على لحيته الشهباء. عند الفـجر سلكتمـا درب اللاعودة، لأن كل شـبر من تلك الأصـقـا ع كـان مـحـفـوفـا بالمخاطر ودروب اللاعودة، عند مغـادرة البـيت لم تكن تتكهن بالعودة، والأهل يودعونك بالحسرة والبكاء، كان بكاء أبيك خوفا ألا يعثر لك على الشـفـاء لديهم، من ثم يضطر ان يسلك طريق المدينة المحـفـوفـة بألف خوف وقلق من الموت، ويشدك كرّة أخرى على ظهر دابة ما..

***

٦

في ذلك اليوم كنتما تحملان على كاهليكما كافة هموم البشر، ولم يحن وقت بزوغ الفجر، الجبال وكأنها تلف نفسـها بأنات الناس وتعاستهم، كانت متدثرة بالضباب وهي تعزف في ذلك الصباح سيمفونية باردة، والقرى التي في أسفلها كـأنها اشـبـاح قطيع من حيوانات غافيـة، ثم ينقشع رويدا رويدا وتبدو بيضاء، وتنفض عن نفسها الظلام والضباب وتتثاءب، كانت تنشط نفسها وتتهيأ على شاكلة قاطنيها، كانت شعيرات لحية أبيك، لما تزل ندية بالدموع، وهو يتأمل في حالتك تلك بنظرات كليلة باهتة، لتـتـحول عيناه الحزينتـان ابدا الى نهير شتـائي تنساب الدموع منهما، كانت تتقطع انفاسه في المرتفعات، كل ذلك على أمل ان يعثر على عـلاج يشـفـيك من المرض الذي ألمّ بك. كـان مـعـقلهم يبعـد عن قريتكم بمسافة بعيدة، ينبغي للوصول اليه، ان تجتازا آلاف المنحدرات والمضايق والمرتفـعـات،وتقطع آلاف الطرق الوعـرة، كـانت مـجـامـيع من القـرى تسـتـقبلكما في الطريق، بعضـه يتـألف من عشرة او اثني عشرة بيـتا طينيا، والبعض الآخر كان مختبئا عند خرشوم جبل ما. او انها كانت قابعة على سفح الجبل، وترنو الى الوديان والقمم والبساتين، لم تزل على هذه الحال، او كانت ترد لكما التحية. او كانت تراقبكما من فوق تلة ما لحين تتواريان عن انظارها.. حياتك الحاضرة تحتضر في ثنايا الغرف المعاصرة الشبيهة بالعلب، وتتحول الى خرقة بالية نجسة، جراء روائح الفواكه العفنة والمياه الآسنة، وعديد من النسوة المتلهفات والرجال

العازبين،كانوا يتعاطون الاستمناء في غرفهم القذرة، كلها تستحيل الى الغثيان والقيء والاحلام المزعجة في لياليك.. مرات عديدة كنتما تسيران بمحاذاة جبل شاهق، وكان حمار فيض الله تنزلق قائمتاه الخلفيتان على حافة منحدرات سحيقة الأغوار عدة مرات، ويشرع جراء ذلك في الضراط، رغم آلام مرضك كانت تستبد بك الضحكات. وهو بدوره كان يتماسك صدفة وبعناد، من ثم كان والدك يرفع ببصره نحو السماء ويستشهد بالله. وعندما كنت تحملق في السماء تبصر سربا من الجوارح تحلق فوقكما، كأنه ينتظر ان تسقطا في هوة سحيقة لكي يلتهم جثتيكما.

يا لسذاجة هذه الناس؟ لقد استحالت هذه السذاجة المعجونة بالعجز خميرة مآسيهم المتوارثة برمتها كابرا عن كابر. عندما تغرز ابرة في اصبعهم يحولون افواههم المليئة بالأنين والتضرع نحو السماء، اذ ليس بمقدورهم ان يفعلوا شيئا، وقد ارعبتهم الطبيعة حتى انه ليس بمقدورهم ان يتغلبوا على واقع حياتهم، عاجزين عن ذلك، وفي هذه الحالة يخشون حتى من ظلالهم، "هدئ من روعك إنّ اللّه لقوي وجبار". فإن الرجل ذو الشكيمة والبسالة ليس بحاجة الى التضرع والابتهال، قد يجعل من فكره ووعيه الشخصيين دينا خاصا به..

***

وصلتما عند الظهيرة الى معقلهم، رحبوا بكما بوجوه ممتقعة ومن ثم ارشدوكما الى مكان طبيبهم..ها هي ذي البشرية تعود الى بدائية سالف الأزمان. خلال الايام والشهور والسنين تلجأ الألوف من البشر الى الكهوف هاربة خوفا من بني جنسهم، حتى ينجوا بجلدهم من براثن الموت والقتل، ويستأنسون بالوحوش والكواسر، ارشدوا والدك الى

الكهف الذي جعلوه مستشفى، على الفور امسك لجام حمار فيض الله وتقدم:

-هجه، هجه .. عليك اللعنة..

يبدو ان غضب ابيك كان قد مس نياط قلب الحمار، وشعر بتجريح كرامته، لذا غرز قوائمه الاربع في الارض كالاوتاد، وكان يمد من رقبته مع سحب اللجام، فخاطبه والدك ملاطفا اياه ببسمة مشوبة بالخجل:

-هيا، كن ولدا طيبا، تحرك من مكانك لأجل قاره مان أفندي..

-يبدو ان قلبه قد رق من جراء هذا الكلام المعسول، واستحالت عيناه الى عيني طائر مرعوب، أمال برأسه نحو الأرض وبدأ يشم الطريق، كأنه كان يشم رائحة الأتان. أعتلى الطريق قافزا، وكانت الطريق أشبه بأفعى مبتورة الرأس والذيل وملتفة حول المنحدر ومتيبسة، كان مكمن الطبيب عبارة عن غرفتين وفسحة محفورة داخل الكهف، كانت مكتظا بالمرضى والجرحى، والنباتات البرية حول الكهف كانت تتحول في الليالي الى اشباح وسعالي وعفاريت.. اذا نادى احد المرضى الطبيب بكلمة "دكتور"، كان ذلك الشيخ المصاب بالفتق، وكانت خصيتاه اشبه بجعبتين مشدودتين بين فخذيه، وقد قصد ذلك المكان للمعالجة، فكان يجبيه:

-تبا له متى كان هذا طبيبا؟ انه فيما مضى كان مضمدا وصار الآن عندكم دكتوورر.. لو كان طبيبا لما اقدم على قتل زوجته، هنا وجد المأوى ويتباهى بنفسه بينكم..

غدا ذلك الشيخ موضع سخرية وضحك ذلك الحشد العليل. كان هناك ثمة جهاز هاتف عاطل، قد وضع في الكهف، كتحفة اثرية، وكان كل مرة يرفع سماعته ويتحدث مع احد كبار رجالات الدولة معبرا عن شكواه،

طالبا منه ان يبادر الى شنق الذين يتواجدون في ذلك الكهف.. ولم تزل تذكر عيني "احمد" المليئتين ببريق الشجاعة، وهو بدوره كان قد انخرط في صفوفهم ليصبح واحدا منهم. لكنهم ارتابوا منه ايضا رغم انه كان قد اصبح واحدا منهم بصفة رسمية. فقد عيّنوه منظفا للمرضى والجرحى الذين كانوا يتغوطون تحت انفسهم في ذلك المستشفى الكهفي، ويقوم بتنظيف صديدهم وقذاراتهم وبرازهم. كان أحمد رجلا ضخم الجثة، من منطقة(گەرمیان) ذا بشرة سمراء، يشع بريق الشجاعة في عينيه، لم يكن يخشى شيئا، دفعه الاخلاص لكي يظل واحدا منهم، لكن بدورهم جعلوه، خادما للمرضى والجرحى الملوثين، بعد مضي عدد من السنين اصبح واحدا منهم وموضع ثقتهم، كانت شجاعته على كل لسان، وكانوا يزعمون بأنه حتى الوحوش والكواسر ترتعد فرائصها من سماع اسمه، اخيرا لقي حتفه في المدينة اثر حادث مؤسف، وقد أذاعوا النبأ هكذا ايضا، ان الكثيرين من أقرانه كانوا يلقون حتفهم في تلك الايام بهذه الحوادث المؤسفة المماثلة..

***

في صباح ذلك اليوم الذي سلكتما فيه الدرب الى معقلهم، كنت تغفو على ظهر حمار فيض الله، كان والدك يترنح في الطريق تحت وطأة تأثير النعاس ويثب فزعا، ويهرع اليك وكان يحتضنك ويطبع القبلات على وجنتيك، كأنه رآك في حلم مزعج، من ثم يلوح بيده ويقول لك:

–هاهي تلك قرية "عم صابر"،انظر ها هي تتراءى، ومن المحتمل بعدها سوف نتوكل على الله، يا ولدي ربما عثرنا لك على الشفاء هناك، عسى ولعل شفاءك يكون على يد طبيبهم؟! التبس عليك جميع تواريخ الدنيا فتحولت بأسرها امام ناظريك الى الخوف والقشعريرة والسقام ،ثم على

حين غرة تنسى كل هذه، فيذهب بكل الخيال كل مذهب، كنت تصنع لنفسك عالما مليئا بالبسالة والرجولة، كنت تتماثل الى الشفاء وتغدو واحدا منهم. فتسلك الطريق معهم جنبا الى جنب متباهيا بنفسك، مثلهم تسلك طريق المرتفعات في صف متراص، واحدا تلو آخر، وعندما تعود الى قريتكم كنت تحمل شارة الرجولة والبسالة على كتفك، كانت أمك تهرع لإستقبالك وتزغرد بهذه المناسبة، اذ صرت فردا منهم، وتأخذك بالاحضان متباهية. وأقاربك واهل القرية كانوا يستقبلونك بعيون ملؤها الخوف والاحترام الزائف ويلثمون فوديك بالقبلات. عندما افقت من حلم اليقظة ذاك قال لك والدك:

–هيا يا بني اسرع وترجل، قد وصلنا الى القرية وها هو بيت العم صابر..

ان اروع لحظات حياة الانسان، هي ان تستقبلك في ذلك الصباح فتاة حسناء وذات وجه صبوح بابتسامة بريئة، بالأخص اذا كانت فتاة جبلية.. وان اكثر مآسيك مع النساء تعود الى ريعان صباك، ان مشاعر الانسان ورغباته في مثل هذه السن، مثل صفحة بيضاء ناصعة، كل خربشة عليها من الخطوط والرضوض سوف لا تمحى على مدى الزمن، وان لم يكن لك يد في تلك الافعال، ربما كان حدوثها عن طريق الصدفة، او كان للآخرين ضلع فيها، غالبا ما كانت فتيات مغلوبات على أمرهن ومكلومات ومحروقات كن مفتاحا لهذه الأفعال، لازال طعم ولذة وتأنيب الضمير بعد كل فعلة من تلك الأفعال قابعا في ثنايا مخك. وفي لحظات الحاجة اللاشعورية تنبري امام باصرتيك وتدغدع جسدك بالشهوة، رائحة الحليب لم تزل تفوح من فيك، كانت _امينة– العانس كسائر النسوة المظلومات في مجتمع متخلف، تجرب عذريتها بك، يبدو انها لم

تلامسها يد ذكر اسطورية، لكثرة ما ذاقت من الحرمان و التعاسة، عندما كانت تبلغ ذروة النشوة الممنوعة وغير الطبيعية بين غلام مثلك وفتاة عانس مكبوتة، كانت تهمس في اذنك همسات مترعة بالشبق وتقول بلهفة:

"اشتهيك، اموت لأجلك، لنكون زوجين حقيقيين" ومن ثم كانت تجهش بالبكاء وانت بدورك كنت تنتحب، ظانا ان العشرة الزوجية هي جريمة فادحة. سوف يلقي بك الرب في نار جهنم، ويُصَبْ هناك في عضوك الرصاص المصهور، وكانت "أمينة" العانس تنسى في غمرة النشوة مع غلام مثلك، بأن عضوك لم يزل حيوانا كسولا وخامدا فقط ينفذ مهام التبول، ان طعم وآلام تلك النشوة لسنين عمرك التسع لما تزل أثارها قابعة _كما يقول– بين مسامات اسنانك.. ان اجمل لحظات حياة الانسان في مثل تلك الاوقات الجبلية، ان ترحب فتاة حسناء بوجه بلا رتوش وبجمال معطاء من قبل الطبيعة وتقول لك "يا مرحبا.. يا مرحبا..".

***

٧

تلك السويعات الجبلية من العسير، ان يصفها الشعراء بصورة دقيقة، ان سعادة الانسان الجبلي تكمن في تلك السويعات. وقد منحته الطبيعة هذا القدر.. كان الظلام يرتقي للتو نحو الذرى في تلك الصبيحة، وضوء النهاء كعابر سبيل متعب كان ينحدر صوب الوديان والشعاب، نسمة باردة كأنها لمسة من يد إمرأة مقرورة، تلج ثنايا ملابسك بتلذذ، كأنها تدغدغك، ترتسم على شفتيك إبتسامة، انزلك والدك من على ظهر حمار فيض الله، بعدها امسك من تحت إبطيك، وتصافح مع العم صابر:

–جئتم أهلا وعلى العين، إي والله يا هذا منذ مدة وأنا في شوق إليكم، ما باليد حيلة لأني مشغول هذه الأيام..

دلفا باحة الدار، تقدم العم صابر والدك مرحبا به "تفضلا.. تفضلا". تقدمكما نحو الغرفة المخصصة للضيوف والمسافرين، غرفة بنيت بإتقان من اللبن والطين الاحمر، كانت مسقفة بعارضات طولية بمهارة، ثمة طاق او طاقان وكوة صغيرة محفورة على جدرانها حسب الحاجة بأيدي الانسان الجبلي الماهرة. كانت جذوات حمراء تتقد داخل موقد طيني مربع الشكل في وسط الغرفة. يدخلان مع البرد في صراع عنيد، لكي تكبح جماح تيار البرودة، وتملأ الغرفة بنفحات حارة.. وضوء النهار كان يكشف النقاب عن الذرى المضببة خارج الغرفة، ويمنح الفؤاد طعما وذوقا شاعريا، اقتعدتم امام لهيب الموقد، قال العم صابر لوالدك:

–بالله عليك كيف حال العم "كويخا"؟ ألم يزل يملك شيئا من العافية..؟

ووالدك كم يزيح ثقلا على صدره تنفس الصعداء ثم أجاب قائلا:

-البقية في حياتك، يغفر له الرب أجمعين.

والعم صابر كالملسوع، بدرت منه ارتعاشة طفيفة وزفر زفرة بطيئة:

-يا ويح نفسي، والله ان الموت لكافر، وان التراب اغلب الاحيان هو لعنة الانسان، يواري آلاف الشجعان والطيبين..

كان لا يزال بقايا ذلك الحزن تنبض على سيمائه، رمقك بنظرة وقال:

-الحمد لله ان "قارەمان" اصبح رجلا، قبل سنين مضت كنت ضيفا عندكم، شاهدته رضيعا والآن هو رجل..

تبدد حزنه بعض الشيء وبابتسامة باهتة اردف قائلا:

-آه يا "قاره مان" أفندي، ويا من تلك الليلة، أطال الله من عمرك، انك لم تدع في تلك الليلة فردا يغفو، كنت تزعق طوال الليل وجدتك "مهروب" كانت وكأنها ذئبة تولول وتعوي في السماء وتتلو الادعية والتعاويذ، عسى ولعل ان تهدأ بعض الوقت..

صفع العم صابر فخذ والدك بكفه مقهقها واضاف:

-ان ابتهالات وتعاويذ الجدة- مهروب- فعلت فعلها، عندما اصابك الاسهال وبعده شرعت في الضحك وهدأت.. وسرقت النوم من جفوننا..

أحسست بالخجل جراء ذلك، وأطرقت الى الأرض، ثم اردف العم صابر بدهشة بعض الشيء قائلا:

-لكن لِمَ قارەمان نحيل على هذه الشاكلة؟

رمقك والدك بنظرة ملؤها الحسرة فأجابه قائلا:

-منذ الولادة وهو يعاني شتى العلل، لا يمهله المرض أبداً، يقولون ان طبيبا جيدا قد انخرط في صفوفهم، ولا مجال لي لأرسله الى المدينة،

وانت بدورك تعرف جيدا طريق المدينة ومخاطرها..

-عسى الله ان يحدث هذا.. لكن لم تخبرني متى وافى والدك المنية؟

-اجابه والدك مهموما:

-في الشتاء المنصرم..

-فليمتلئ مثواه بالنور، يا ويح نفسي على العم "كويخا"؟

قبل تناول فطور الصباح يخرج العم صابر لفافة سجائره، مع لف السيجارة يستمر في حديثه:

-كنا اطفالا عندما كانوا يتحدثون عنه قائلين بأنه كان شابا شجاعا لا يستهان به. وكان موضع اعتزاز هذه الاصقاع، قبيل مجيئها هو والجدة -مهروب- الى قرية "كاني گومه"، كان واحدا من مقاتلي الشيخ محمود الحفيد. كان إبناً بارا ومغوارا، كانت علامة تلك الأيام على كتفه الأيسر كما كان يقول. عندما اصيب الشيخ الحفيد، فدته روحي في معركة "دربند بازيان" مع الانكليز، وهو قريب منه وحين يهب لنجدة الشيخ يصاب هو الآخر ويفتك الرصاص بكتفه ويقع في الأسر، بعد ان نفي الشيخ، اطلق سراحه، بعدها هام على وجهه نحو منطقة "گەرميان" واستقر مع الجدة "مهروب" في قرية "كاني گومه".. ولأنه كان رجلا شهما وصادقا انتخبه اهل القرية عمدة لهم..

زفر والدك اثر حديث العم صابر زفرة حرّى، عادت به الذكريات الى جدك كويخا، وكلام صابر أثار في نفسه شجون تلك الأيام، بعد الانتهاء من اعمال حرث الارض والارواء، كانا يجلسان تحت عرزال داخل بستانكم ويقول له جدك:

-أحسنت صنعا لم تحشر نفسك في كثير من الأمور، فيما مضى من

الزمان، كانوا ينفخون فينا كمن ينفخ في الكير ويثيرون فينا الحماس والحمية، لكنها كانت مقترنة بالأخلاص الساذج، اذ ذقنا علقم ظلم الآخرين وتسلطهم، كانوا يسوقوننا كل مرة بناموس معين ولغة معينة، ويجنحون الى تجويعنا وحرماننا. كان العثمانيون قد تركوا لتوهم ديارنا، كان ذلك بعد سنوات القحط، بيد ان القحط كان من مخلفاتهم، اذ كان جحافلهم تشرع في سلب ونهب كل ما تقع في متناول أيديهم. في تلك السنة تزوجت والدتك، في فصل الشتاء، والقحط على وشك نهايته. وليس في وسع الكلام التعبير عنها بأي حال من الأحوال قضينا الشتاء. ان كل ما كنا نملكه من الدخن والشعير، أخفيناه في الحفر والثغرات. كنا نخبز ليلا خشية من معرفة الآخرين، ونخشى ان يهجم علينا الناس الجوعى، ونهلك جراء ذلك ويسطوا على كل ما نملك. اذ بين الجوع والجنون خيط واه. كانت اياما صعبة، مع حلول الربيع عادت الثقة الى النفوس، سوف لا ينتابنا الهلع من المنية جوعا مثل اكثرية الناس، يجلب الربيع الخيرات معه، اذ تنبت الأعشاب البرية والكاعوب والكمأة وسوف نبعث من جديد. فلم نمت وتغيرت حال الدنيا بشكل آخر، إذ أن الانجليز احتلوا تلك الأصقاع، وفي تلك الاثناء روجوا الاشاعات بأن الانجليز يرومون ان ينصبوا الشيخ محمود ملكا علينا، انتشى الناس بهذا النبأ اكثر ونسوا أوجاع سنوات القحط برمتها قبلها وبعدها. انا بدوري قصدت المدينة واصبحت جنديا لدى ملكنا الجديد. وكنت اعود الى القرية مرة كل شهر.وقد انخرطت في سلك الجندية طوال حياتي تلك السنوات فقط. وقد تملكتنا الثقة بأن عشنا سوف لن يتداعى كرة اخرى. اذ كما يقال ان ملكنا من "احفاد الرسول" وان الله سوف يغيثه ولا يدعه ان يتعرض للهلاك، يا له من يوم مشؤوم، لا أتمناه حتى

لعدوي، الخاسئون والمتزلفون هل يدعون قط ان يهدأ بالنا، وان تسير الأمور بشكلها الصحيح؟. وقد أدى نفاقهم لدى الانجليز الى خراب بيوتنا. وقتئذ كان أخوك "حسن" الديوس لم يزل في المهد، ولم يكن لك اي اثر بعد، فولدت بعد ذلك الدمار. أذيعت الاشاعات في المدن والقرى بأن الانجليز قد نكثوا بوعدهم، ويبغون ان يسيئوا الى الشيخ الحفيد، اذ لم يكن يحسب لهم الحساب ، ولم يكن يتصافح معهم بيد مكشوفة ولا يتعاون معهم فكان ينعتهم بالمحتلين والكفرة، لذا صبوا عليه جام حنقهم وشنوا عليه حملة شعواء وكادوا له ودسوا في كل مكان وغرروا ببعض الحثالات من الناس وكانوا يحرضونهم للإساءة اليه. لكنه كان ليثا ولم يأبه لإساءتهم. لذا شرعوا بالاغارة برا وجوا على القرى والمدن التي كانت تؤازره، ويدمرونها فوق رؤوس ساكنيها, وقد وصل بهم حقدهم على هؤلاء الناس الى اللجوء الى حيلة فتّاكة، ولم يَروِ ظمأهم تلك الافعال الشنيعة، بل لجأوا الى تلك الحيلة الفتاكة، ان الاهالي كانوا يتركون قراهم نهارا خوفا من بطشهم ويعودون اليها عند حلول الظلام، فقد نبه الجواسيس والعملاء الانجليز بذلك، لذا لجأوا الى قصف القرى بالقنابل الموقوتة من الطائرات. عندما كان الناس يرجعون الى قراهم وقت الظلام، كانت تنفجر فيهم هذه القنابل.. آه.. ياولدي كم كانوا حاقدين وكانوا يكشفون بذلك عن حقدهم الدفين المتوارث. كانوا يعتقدون بأننا قد هزمنا الجحافل الصليبية، وينسبون صلاح الدين الينا. وكانت قريتنا واحدة من تلك القرى، وفي تلك الاثناء قمت بانقاذ أمك واخيك "حسن" اللعين، وهربت بهما الى قرية في "بازيان" لحين إنجلاء الموقف ومعرفة العاقبة والى اين تسير بنا الأمور.. لكن. عدنا الى ديارنا ميئوسين وخالي الوفاض. فقد نفوا بعضا منا الى الجنوب والبعض الآخر زجوا

بهم في السجون. وانا بدوري وقعت في قبضتهم واودعوني السجن لمدة شهرين، وعندما أخلوا سبيلي شددنا الرحال الى "گەرميان" واستقر بنا المقام في قريتنا هذه "كاني گومه"..

***

تذكرت تلك السنة التي سجلك فيها والدك في المدرسة، كان ذلك في ظهيرة أحد الأيام، عندما خرجت مع زملائك من تلك المدرسة التي تقع على طريق السليمانية، قبالة الدور الطينية في حارة "بەرتكيه"، ولم تزل مئذنة جامعها العالية تترصد مدينة كركوك في وسط البيوت بأكملها. خرجتم مع الزعيق والصراخ الى الشارع. وقتئذ لم تكن هذه المدن تجتازها مركبات كثيرة، على حين غرة امتلأ الشارع بهدير مكائن السيارات وزعيق أبواقها وهي تسير في هلع، فوقفتم على ناصية الشارع المقيّر مشدوهين، ترنون بعيون جاحظة الى مسيرة السيارات. اعتراكم الهلع بعض الشيء، كي لا تهجم عليكم تلك المركبات كالثيران الهائجة وتدهسكم، احتشد جمع غفير من الرجال والنساء والأطفال صغارا وكبارا على جانبي الشارع، كانوا مشدوهين من ضخامة عدد السيارات.. بادر أحدهم قائلا:

–اية فجيعة وراء هذا العدد الهائل من السيارات..؟

كان الخوف والهلع يزداد في نفوسهم اكثر فأكثر، كانت احدى المركبات الطويلة، الشبيهة بسفينة "نوح" يستقلها خمسة اوستة رجال كانوا على متنها مهمومين، احدهم كان يحمل آلة موسيقية ضخمة أشبه بالقمع، كان ينفخ فيها لحنا مخيفا فقد وصلت السيارة الضخمة "سفينة نوح" قبالتكم، كانت عليها صورة كبيرة مؤطرة، وقد انطبعت ابتسامة جريئة على شفتي صاحب الصورة، وكان يرمق الناس بنظرات هادئة،

مرتديا ملابس كردية رصاصية اللون ويعتمر يشماغا، غارزا خنجرا في ثنايا لفة حزامه المنسوج من قماش "كريم ستان" ذات الورود ملفوفة حول خصره لفات عدة..على حين غرة اجهش بقربكم رجل كهل بالبكاء وأردف منتحبا:

–واشيخاه.. وامحموداه، شيخنا الكبير، شيخي أنا، شيخ "داري كەلى (*) " و"بەردەقارەمان ". ويح نفسي على الملك الكردي.. واه.. واه..

تخافق قلبك عند سماع اسمك "قارەمان"، للوهلة الأولى ظننت انه يقصدك ولكن حينما أيقنت بأن هناك صخرة ما، تحمل امسك، سررت لذلك كثيرا.. قال الآخر من جهة أخرى:

–أنه نعش الشيخ محمود، وقد وافاه الأجل في بغداد، سوف يعيدون جثمانه الى مدينة السليمانية الى حضرة "كاك أحمد الشيخ" فدته روحي..

***

كنت مشدوها، ووالدك والعم صابر كانا يتجاذبان اطراف الحديث بالأسى والحزن الرتيبين، بغتة ولجت الفتاة الحسناء ذات الوجه الصبوح، كانت تفوح منها رائحة المسك والقرنفل الكرديين، نشطة، متبرجة تبرجا عاديا. ولم يكن يبين للنوم اي أثر على محياها، وكأنها لا تعرف للنوم معنى وعيناها كانتا تقدحان ببريق أخّاذ، ان تسعين في المائة من الفتيات الجبليات هنّ على هذه الشاكلة، فمنذ إنبلاج الفجر يغسلن وجوههن بمياه العيون، ويرتدين اجمل ثيابهن ويكحلن عيونهن بالكحل بعض الشيء، ويرطبن قلاداتهن المصنوعة من حبات القرنفل بأيد

(*) داري كه لي: القرية التي اندلعت فيها اولى شرارة ثورة الشيخ محمود الحفيد..

مبلولة، لاستزادة فواحتها..يا ربي ماذا يحدث؟ سوف يلهبن اشواق عشرات الفتيان بتلك الرائحة الاسطورية الفواحة.. ولجت الفتاة بابتسامة مشوبة بالخجل، كانت تحمل صينية وعليها طبقان من الحساء "ترخينه" وضعتها في الوسط بالقرب من الموقد، ثم انسحبت بأدب جم وخرجت، رمقك العم صابر مبتسما وقال لك:

"– ايه يا قاره مان أفندي، عندما تتماثل للشفاء سوف اجعلك صهري، وادخل تلك الحسناء في حضنك" اطرقت خجلا لكن.. انشراحا باهتا كان يدغدغ دخيلتك، ثم حدجت والدك بنظرة مستفسرة وقلت في سرك "وهل اتماثل للشفاء لأقبل تلك الفتاة الجميلة؟".. في تلك الصبيحة الباردة حد التجمد، كانت أبخرة حساء "ترخينه" تمنح النفس سعادة بريئة، تذكرك بطعم تاريخ غابر ورائحته، التاريخ الذي كان مليئا بالشجاعة والرجولة والصمود والطهارة والسعادة الطبيعية، وبعيدة كل البعد عن الويلات المعاصرة، عندما كانت جدتك تطبخ حساء "ترخينه(*)" كانت تقول لك:

–يا ولدي أحسِ وذُق من حساء "ترخينه" ان من لا يشبع من حساء "ترخينه" لا يصلح ان يكون رجلا..

احتسيتما الـ"ترخينه" بشهية اسطورية، ووالدك والعم صابر بعد الانتهاء منه مسحا شفتيهما بحزاميهما المصنوع من القماش وحمدا الله وشكراه، ثم أخذا يدخنان لفافتين باشتهاء وينفثان دخانهما.. عادت الفتاة مرة اخرى، وتربعت جالسة باستحياء امام الموقد وقال لها العم صابر متباهيا:

–هيا يا ابنتي، صبي لنا الشاي، ان عمك "حمه سور" وقاره مان

(*) ترخينه: حساء يعمل من البرغل والخاثر أو اللبن.

افندي امامهما طريق سفر الخير ان شاء الله.. فقد شربتما قدحين من الشاي المعمول على نار الحطب، ثم رمقت ذلك الريم الجبلي من الاسفل، بنظرة مترعة بالحزن والأسى. هي بدورها مدت لك قدحا من الشاي، ورمقتك بنظرة مليئة بشفقة مخفية، على حين غرة سرى في خلدك كلام العم صابر كوميض البرق "عندما تتماثل للشفاء سأجعلك صهري وادخل تلك الحسناء في حضنك، ماذا تريد اكثر من هذا؟".. الآن ادركت بأن ذلك الكلام لم يكن الا خدعة لكي ينفخ فيك اكسير الحياة، بعدها لم تلتق لا بعم صابر ولا بتلك الفتاة ابدا..

ثم اضاف والدك قائلا:

"هيا لنتوكل على الله، تعرف يا عم صابر بأن امامنا طريقا طويلا، ان تلك الطرق ذات هوّات سحيقة ومسالك وعرة، وحال قارهمان لا يبشر بالخير، ليس لي بعد الله سوى وحيدي هذا..!

قام العم صابر بتوديعكما وكان يتضرع الى الله عشرات المرات، ويتوسل الى اوليائه الصالحين، ان تجد الشفاء على أيديهم".

وابنة العم صابر كانت تودعكما بنظرات يغمرها الاشفاق، وحدجتك من الأسفل الى ان خرجتما من القرية.. بعد ذلك وصلتما الى ذلك المستشفى الكهفي الذي فيه طبيبهم.

***

٨

بعد شهور من تماثلك للشفاء، وفي ليلة ثلجية قارسة، مات أبوك اثر مرض مفاجئ، فأورثك بموته حياة مترعة بالشقاء والضنك..

في الفترة التي كنت فيها تلميذا في المدينة، كنت تعود الى القرية في العطلة الصيفية، وتعاون والدك في الأمور الزراعية.. ولم تمض سوى فترة وجيزة على شفائك، كنت غلاما عجولا وطائشا، فكان الآخرون ينهرونك بسبب ايذائك لهم ويقولون "لم تماثلت للشفاء أيتها النار الحامية" حتى الأشجار والحيوانات كانت تنتبه لقدومك، لذا كانت كلها تزحف لتخبئ نفسها خوفا، كنت تملأ تلك الأصقاع صخبا، وتمشط البساتين والمزارع من أعلاها الى أسفلها، كنت حيوانا أرشما وطائشا، تتسلق جميع الاغصان. من ثم تملأ جيوبك بالفواكه لأصدقائك، كان يصادف ان ينتبه احد المزارعين لذلك، ويقوم بمطاردتك حتى مشارف القرية بالسب والشتيمة، كنت بدورك تدلف الى دار الخال "عثمان الحطان" مثقلا بالتعب واللهاث، وبعد ان تأخذ قسطا من الراحة، توزع محتويات جيوبك على بناته الباكرات مع الغمز واللمز والقرص.. وفي موسم الحصاد كنت تعاون اكثرية فلاحي القرية، لحين حلول وقت الأصيل تنفذ جميع الشؤون ذات الصلة بالزرع والحصاد، مع دندنة اغنيات "حسن زيره ك"، كنت تعتمر قبعة مصنوعة من الوبر، تتسابق معهم ببغلتك، رغبة في ان تثبت لهم بأنك لَم تزلْ ذلك الفتى القروي أيام زمان، وان الحياة المتحضرة المصطنعة العابثة لم تغير خصالك، بل انك

اكثر همة من السابق، رغم ان الهزال قد دب في جسدك من تأثير المرض. كنت تستيقظ عند الفجر، تهيئ نفسك بهمة ونشاط عسكريتين، تتقدم الآخرين في العودة، وتلج القرية متباهيا، وتنتظر الفتيات ان يقلن لك "الله يساعدك" وكن يبادرنك بالقول "انك لا تستطيع الصمود امام هذا القيظ، لا ترهق نفسك، سوف تلفح الشمس بشرتك". لم يكن ذلك ليحلو لك، كنت تتشاجر مع اغلبهن وتشتمهن في سرك شتائم مقززة.. عند المساء كنت تزور مرتع الأغنام، وتقطع الطريق على الفتيات اللائي يذهبن الى حلب الاغنام مازحا. وهن بدورهن يحدن عن الطريق ويخرجن لك ألسنتهن مقهقهات. وحين تصادف في الطريق "وزيرة" العانس، كانت تبادرك بالقول "يا ابن الزانية، انت تلميذ وابن المدينة مالك وهذه الفتيات المليئة أجسادهن بالقمل؟" كنت تحنق عليها، ويصل بك الأمر ان تهاجمها وتقبلها على مرأى من الفتيات والنسوة الحالبات، حين كنت تتشاجر مع فتيات القرية كن يقلن لها:

–يامن قبلوها في المكان الفلاني، يا من فعلوا بها في كذا وكذا من الأماكن..

كانت تجيبهن بقهقهة:

–قلن ما شئتن، ان ما بين افخاذكن يؤلمكن..

لم تكن تعير اهتماما لذلك رغم انها كانت تقول لك، عندما ولدت كانت هي قابلة لأمك، وتغمز لغلام في عمرك ويعتريها الشبق والشهوة..

***

عندما مات أبوك، فأن عمك "حسن" لم يحضر حتى في مراسيم الدفن والعزاء، يبدو ان ثراءه وفقركم كانا عائقين بينكم وبينه.. وكان يستنكف من الالتفات اليكم وان يحسب نفسه من ذويكم رغم انك كان لديك الكثير

من الاقارب في المدينة، لم تقم بزيارة احدهم قط بعد موت أبيك. ولم تمكث في بيت عمك "حسن" كثيرا، ولأنك كنت متفوقا في الدراسة، بالاضافة الى كونك يتيما فقد تم قبولك في القسم الداخلي على هذا الاساس، كنت تعود في العطلة الصيفية الى قريتكم مرة او مرتين لزيارة أمك المترملة. وفي اشهر الصيف كنت تعمل صانعا في مختلف الاشغال. في اعمال البناء، عامل في المطاعم والمقاهي، وعندما تزوجت امك من فلاح شبق، فطمت نهائيا عن زيارة قريتك، كنت تعمل نهارا وتواظب على الدراسة ليلا، الى ان اكملت دراسة القانون، وفي اشهر الصيف كانت تجابهك الطامة الكبرى، حيث كنت تظل دون مأوى، لأن القسم الداخلي يغلق أبوابه في تلك الاثناء، فعليك ان تستأجر وتدخر بعض المال.. في البدء لا تحصل على المأوى،وتشرع في التسكع في المدينة في مقاهيها وشوارعها الى ان يجن الليل، بعده تتجه صوب المقبرة "الشيخ محي الدين"، حيث تصبح الأرض فراشا والسماء غطاء لك، تضع رأسك بجوار رؤوس الموتى، كم رغبت ان تكون مقبرة قريتكم عوضا عن هذه المقبرة، على الأقل كنت تتمدد بجانب قبر أبيك، وتدع رأسك فوق مثواه، وتبث له لواعجك وماذا حدث لك من بعده، تقضي لياليك دون مأوى وفي المقابر، حتى عمك "حسن" لم يرض بإيوائك.. كان جدك على حق عندما كان يقول لأبيك "أخوك اللعين حسن". اذ كان يدرك منذ زمن بأنه ولد عاق وغير اصيل، ولم يقم بإيوائك فقد كان يخجل ان تكون انت ابن اخيه،اذ كان والدك معدما الى ان مات. في حين استطاع هو ان يغادر الى المدينة ويغتني بأساليب غير مشروعة، كنت والتشرد صنوان، حياتك هي عبارة من الجوع والملاحقة والقلق برمتها. الآن تأقلمت مع الهموم والفجيعة، تتأمل الاشياء ولا تكترث لها، حتى لشيم وتصرفات الآخرين..

ترعرعت منذ الطفولة مع القيء..

ان ذلك في ظهيرة احد ايام ١٩٦٧، عندما كنت يافعا وفي السنة الأولى من دراسة الكلية. يومها كنت عائدا من بغداد الى مدينتك، رأيت جثة "نوزاد" الخباز راقد في بركة من الدماء، شابكا يديه بين فخذيه، طريحا على الارض، كأنه نائم وقد تجمد من جراء البرد، بقعة الدم التي تحته كانت شبيهة بوشاح احمر.. خلف وراءه كومة من اللحم، اطفاله تشردوا في الطرقات والأزقة، وكان الناس يلتفتون اليهم غاضبين ومشمئزين، قام نفر بقتله، لأن "نوزاد" كان منتميا الى منظمة مناوئة لهم، وكان حشد من النسوة والأطفال ملتفا حوله، بعضهم كانوا يضربون الأخماس بالأسداس ويتحسرون عليه، والبعض الآخر يبتسم بسحنات مزيفة ويتجاذبون اطراف الحديث.. سمعت بعضهم يقول بلكنة تركمانية:

–الأكراد، انهم اولاد الكلاب، يبيدون بعضهم البعض..

قالت امرأة بجوارك:

– قز قوي گيبارسن، دييللر قرمزي در(*).

–اذا غضب الله على النملة ينبت لها الاجنحة، لقد ابتلى شعبنا بغضب الله..اذ انعدم الدين والايمان..

وتقول امرأة أخرى:

–أيه.. يا "أمينة" البائسة فقد ترملت وفي عهدتك أربعة اطفال صغار..!

(*) تعبير تركماني معناه: دعيه يا امرأة ليفطس يقولون انه كان احمر، كناية عن الشخص الشيوعي.

هم وهؤلاء كانوا يحتربون فيما بينهم لسنوات عدة، ولم يتورعوا في الفتك ببعضهم، كان يصرع احدهم يوميا في الشارع أو الزقاق ويتمرغ في دمائه، يمكن القول بأنها كانت مأساة كبرى، وقد فجعت الناس بها. وكانوا يرددون بأنه كان للأجنبي ضلع فيها، وابوك رحمه الله كان دائما يردد "اذا تشاجرت سمكتان في النهر فلابد ان يكون للأجنبي ضلع فيها".

تذكرت مأثورة الكلب، ان الحيوان أغلى من بني آدم في هذا الشرق اللعين. كانت تلك الوقائع وشما كبيرا مأساويا على جبهة تلك المدينة والمدن الأخرى في تلك السنين، وكنت عاجزا عن فعل شيء ما، فقد اثخنت بالهموم، وكنت تلعن كينونتك، كأنهم كانوا يتقاسمون إرث آبائهم، لأسباب واهية كانوا يفتكون ببعضهم البعض..

***

٩

عدت في الظهيرة الى غرفتك،التي بدورها تحتضن تشردك وحزنك وكبتك الجنسي وتعاستك في ذلك الخان.. ها قد بدأ الزعيق والصراخ والفوضى مرة أخرى. والنسوة الأخريات في الخان يمسدن أردافهن وأفواههن مليئة بالعلك. وانت ساكن أعزب، ولجت من الباب المتهرئ للخان الى داخل الباحة، شاهدت النسوة مجتمعات أمام غرفة "عثمان كةثوو"، بعضهن حزينات والبعض الآخر، قلقات، خائفات، هائجات، يعلكن اللبان دون اكتراث، متحسرات، مشفقات، كن يلطمن الخدود كاذبات، صادقات:

-أواه.. يا "خاوەر" المسكينة.!

-تهشمت يداك يا عثمان..

-لتخسأ رجولتك كما خسأت..

-ألم تنظر الى نفسك..؟

-رغم ذلك أنها قانعة بك، لم تعاملها هكذا..؟

-هيا يا استاذ قارەمان، اصلح فيما بينهما وانصح ذلك القميء.. دلفت الى غرفة "عثمان كەثوو " فرأيت وجه "خاوەر" البض والوامض ببريق الحسن، تنساب عليه الدموع بغزارة. عند رؤيتك اياها على هذه الشاكلة، اسودت الدنيا في عينيك، كيف يسمح هذا اللعين لنفسه ان يعذب هذه الأميرة المنكوبة..؟! تمنيت ان تكون خاوەر زوجتك، وتمسح

دموعها بالشفاه، وتحتضها كطفلة محبوبة بحنان.. خطر على بالك ان تنقض على عثمان، وتشبعه ضربا وتهشم ضلوعه، احسست انه لولا الفاقة والعوز لما كان في مقدور أية قوة في الكون ان تجمع بين الظلام والنور، أو بين القبح والجمال، يبدو انها كانت قصة غرامية فاشلة اوصلت "خاوەر" الى هذا الحال المزري، والا أية فتاة حسناء تقبل ان تقترن برجل كهل، اذا لم يكن هناك دافع فعال، ويقرن القبح بالجمال، ويجمع القديم بالحديث؟ لربما تزوجته من اجل ثروته، وتدوس على كافة المثل الانسانية وتضاجع شابا في الخفاء، ام انها تتزوج من مركزه ووظيفته، هذان السببان هما الجانب الواهن والعجز في الفتيان اللائي ليس في مقدورهن ان يحكّمن عقولهن في اختيار نوعية حياتهن. ولعل "فرويد" نفسه مقتنع بهذا الرأي، لكن المسألة لدى فتاة مثل خاوەر متباينة.. النسوة في الخان كن يرددن ان "خاوەر" قبل زواجها من "عثمان كەثوو"، قد هربت مع شاب، لكن أهلها تعقبوها واعادوها فزوجوها من احد اقاربهم المسنين الذي هو، "عثمان كەثوو ".وسبب تلقيبه بـ " كەثوو " هو ان رصاصة قد فلطحت أنفه فيم مضى.. واقتنعت "خاوەر" بهذا القدر. اذ نجت من وحشية تخلف أهلها، كأنها كانت بديلة لثأر الدم وكان يشبعها بالضرب المبرح يوميا. ويجعل منها فرجة للنسوة الثرثارات في الخان، تمنيت ان تكون "خاوەر" امرأتك..ان المرأة هي هدية نادرة من لدن الطبيعة.

رغم ان آثام الانسان وخطاياه تنبع من المرأة، وان شعور الرجل بالوحدة هو نتيجة حاجته للمرأة.. أغلب الاحيان كنت تنكب على القراءة في غرفتك، وتقبع في احد اركانها، وتعلن الاضراب عن الكون وتعتكف، وبعض الاحيان كانت "خاوەر" تجيء اليك، وتقتعد عتبة الغرفة، كئيبة،

خجلة ولم تكن ترفع عينيها السوادوين عنك. وبين الفينة والفينة كانت تتنفس الصعداء، دون ان تنبس ببنت شفة، الى ان ترفع رأسك ولم تكن تسائلك. كان احساس غامض يجرجرها صوبك. وانت بدورك ترتبط بها بعلاقة مقدسة، علما انك كنت اكثر شوقا من امرأة شبقة، لكن رغبتك هذه كانت تذوب كالجليد عندما تتعرض لحرارة الشمس، وتستحيل بخارا لترتقي الأعالي. وأمسى ذلك التصرف مادة خصبة لثرثرة النسوة في الخان، ربما كان يشبعها "عثمان كەثوو " ضربا لهذا السبب.. ولم تخطر ببالك هذا ابدا، اذ انك و"خاوەر" توأمان تعيسان، تستأنسان ببعضكما، كنتما مثالين لآلاف البشر في كنف مجتمع متأخر.. كانت تستفسر منك بعض الاحيان:

–استاذ قاره مان، أكانت "أم دلير" جميلة..؟ ودلير ايضا؟ يبدو بأنه كان شبهك؟..

تجيبها بحرارة:

–نعم.. كانت فاتنة مثلك، يومها كان دلير في عامه الثاني وكان شبه والدته..

كانت ابتسامة خجلة ترتسم على وجهها فتنكس رأسها، كانت تصمت بعد هذا الاستفسار وترمقك بنظرات مترعة بالأسى، وبعد لحظات كانت تقول:

–كانت اكثر تعاسة مني..

احدى الغرف الاخرى التعيسة في الخان، كانت غرفة "سليمان"، يعيش مع زوجته واطفاله واخته العانس، يبدو ان العوز والفاقة قد دفعاه الى ان يلجأ الى هذه المدينة، وصدفة استقروا في الغرفة المجاورة.. تعرفت على سليمان عندما كان منخرطا في صفوفهم، كان فتى وسيما،

متقد الذكاء، نشيطا، حلو المعشر وذا وعي. كان قناصا ماهرا لا يخطئ الهدف، شجاعا نادرا، كان يواجه الموت بثغر باسم، كنت تراه بعض الوقت مستلقيا في مكان ما، كأسد يستلقي تحت ضوء الشمس أمام عرينه، ماسكا قلما في يده، متأملا الطبيعة بحزن قاتم، كنت تدنو منه وتبادره بالسؤال:

–ما لي أراك وحيدا يا سليمان، ماذا تفعل؟

يجيبك دون اكتراث:

–ألا تعرف بأني أمارس كتابة الشعر بين الفينة والأخرى؟..

وكان يحفظ عن ظهر قلب أشعاراً لمعظم الشعراء القدامى والجدد، عندما كنتم تجنحون للراحة في مكان ما، او تحطون الرحال، تطلبون منه ان يقرأ اشعار "شيخ رضا" مقلدا صوت _شكر الله بابان– والآن تراه يوميا، وتشعر بوخزة في دخيلتك، يتكلم بصعوبة ويتلعثم اثناء الكلام ويسحل خلفه طرفه الأيمن واصيب بالشلل، تراه في الشوارع والحارات يدفع العربة التي يبيع عليها"حمص مطبوخ" بصعوبة بالغة، كي لا يرى صغاره وهم يتضرعون الى الناس ويتسولون. ولم يخطر على باله يوما ما، ان يقدم على عمل مشين. وقد نفش يديه من كل شيء، ليس في وسع اي انسان ان يغرر به، كي يقبض كغيره مالا وفيرا، كان يعيش مرفوع الجبين، ولم يتخل عن شهامته وإبائه قط، ادركت للتو بأن "سليمان" قد ابتلى بهذا المصيبة، حين اصبحت احد نزلاء ذلك الخان، كان اصيب بشظية مدفع في رأسه، لذا تراه نصف مشلول، كان يندب ماضيه ولم يكن بنادم، ماض مترع بالتفاني والاخلاص، لكن الاخلاص وصم حياته وجسده بدمغة عصيبة، فقد ذهب كده وشقاؤه ادراج الرياح. حياته الآن تعيسة، ضجرة، حتى انها لم يبق فيها ايما

اخلاص.. الاخلاص لمن ولماذا..؟ بغية الاخلاص ضحى بنصف جسده، وقفل راجعا بخفي حنين، لكنه يرى زملاءه الآن وقد أمسوا اصحاب ثروة وجاه، ويقضون حياة سعيدة ويرنون اليه بعيون الشفقة، لماذا لم يصبح مثلهم لاعب اكروباتيك ماهر، كي يلعب على عدة حبال؟ لكن كلا، حتى الآن لا يسمح لنفسه ان يكون مثلهم ويدوس على كافة القيم والمثل بحذائه..

***

كنت تعرف المرأة المتشحة بالسواد اكثر من نفسك، كانت هي بدورها تعرفك اكثر من نفسها، وترجع هذه السيرة الى سنين مضيت، حين كنت طالبا، ولم يكن آنذاك قد حان وقت انخراطك في صفوفهم بعد، ربما انخرطت في صفوفهم بعد ذلك.

حينئذ كنت تعيش في بيت عمك "حسن" في المدينة، كان بيت المرأة المتشحة بالسواد "هه تاو" لم تزل فتاة باكرة وقتها مجاور لدار عمك، لم تكن تتكيف مع اسرة عمك، وبدورهم يبادلونك نفس الشعور، اذ انهم كانوا اثرياء وانك كنت ابن فلاح معدم، كنت لتوك قد نزعت عنك قشرتك القروية، وهم كانوا يتبجحون بتقاليد حضرية، ويستنكفون من كونك ابن عمهم، اغلب الاحيان عندما كان احدهم يسأل بنات عمك، من تكون؟ كانت تجيب بأنك احد أقاربهم البعيدين، او انك ابن الرجل الذي يرعى أغنامهم، لذا استحال ذلك البيت الى جحيم لا يطاق امام باصرتيك، وقتئذ صادقت تلك الفتاة التي كانت تعيش مع ذويها في ذلك الكوخ الطيني المجاور لدار عمك، كانت بدورها تزورك بين حين وآخر، وتشفق عليك بنظراتها الحرى، وتنسى هموم أسرتها ونكباتهم.

***

الفصل الثانى

١٠

الوقت الآن هو الظهر، أطعمت ابنتك الكسيحة ملعقتين من الطعام ثم اطبقت جفنيها، فغفتْ.. ولربما كات غفوتها من جراء الاحتضار وسكرات الموت ،انها زكيبة عظام، يجري لون المنية في عروقها مثل لون الدم، عندما ذهبت بها في الفترة الاخيرة للمعاينة، قال لك الاطباء: من المستحسن ان تموت في البيت.. هرعت الى مدخل الدار فجلست القرفصاء مكلومة، بين الفينة والفينة كنت تنظرين الى اعلى الزقاق، كأنك تنتظرين مقدم موتها على وشك ان يتسلل الدار ويخطف منك تلك الزكيبة من العظام ويتنكبها على كاهله.او ربما تنتظرين "قاره مان" اذا عاد فسوف تخبرينه بالحالة كي يهب لنجدتك، اذ انه هذه الصبيحة كان في عجلة من أمره، لم تتح لك الفرصة كي تقص عليه حكاية "شاناز" ليكون على بينة من الأمر..

السماء كانت وكأنها آلاف من المداخن تتدلى منها الى الارض، تنفث أدخنة مركزة وترتقي بطقس رتيب، وتتحول الى مئات من القطع، يتداخل ببعضها البعض، تجسد لوحة متشائمة. والغيوم في الجهة الشمالية لسماء المدينة، كانت تصب في الغيوم البيضاء في الجهة الجنوبية على هذه الشاكلة،على وشك ان تحجب سماء المدينة، ومغزل النور الهائل يعيث كاللص الهائج في السمت، ويضيء وينطفئ في بعض الاماكن كسراج اللصوص على حين غرة راسما مشهدا خرافيا.

***

ان الراتب التقاعدي لزوجك كان يبتلعه ايجار غرفتي "الحاج مصطفى"، ولقد حصلت على هذا المرتب التقاعدي بكثير من المشقة والاستنجاد بالآخرين للتوسط لك لدى السلطات، كنت تلجئين اليهم بالبكاء والعويل من وهناك، فكانوا بدورهم يشفقون على حالك ولا يتوانون في مساعدتك، ويسارعون الى اقناع بعض الموظفين، سواء اكان بالصداقة او بالمروءة لتسهيل مهتمك، ذهبت الى بغداد وعدة مرات دون معرفة سابقة بها الى ان عثرت على دائرة التقاعد بواسطة بعض الخيّرين، هناك كانوا يتعمدون عرقلة معاملتك بشتى الحجج والتبريرات، او كانوا يطلبون منك مستندات معينة او شهادة اثبات ام اية وثيقة اخرى، مرات عدة قالوا لك ان زوجك لم يكن موظفا حكوميا، فكيف بوسعهم منحك راتبا تقاعديا، لكنك بأي حال كانت استطعت ان توضحي لهم جلية الأمر، انه مقتول فهناك تعليمات حول منحه راتبا تقاعديا، زرت مدينة بغداد اكثر من ست مرات وفي كل مرة كان الموظفون يمطرونك بوابل من النظرات الشهوانية الخليعة، من قمة الرأس الى اخمص القدمين.والبعض الآخر كانوا ينجزون معاملتك على وجه السرعة بغية شيء ما، الى ان تم تخصيص عشرين دينارا شهريا. في اليوم ذاته عندما عدت، شمرت عن ساعديك وقمت بصنع طشت من الرغيف فوزعته على الجيرة، بعض من النسوة الثرثارات في الحارة كن يشرعن في مشادة كلامية بصددك:

–الحمد لله، ان الله رحم بحال "هه تاو"، لن تكون بحاجة الى اعانات الآخرين بعد الآن.

– يالها من امرأة لجوج، اقتطعت من الحكومة راتبا لها ولإبنتها عنوة.

– يا امرأة، ماذا تقولين، لها لسان سليط وطويل بهذا القدر (تمد يدها

اليمنى) انها تغرر حتى بالأولياء الصالحين..

–يا بنت، هي ايضا تجيد قسطا من القراءة وواعية، وليست على شاكلتنا..

–لكن يا امرأة، اني ارى "هه تاو" على غير ما يرام، وعيونها زائغة..؟

–رجاءا، دعنها وشأنها، انها تعيسة، لو لم تكن تعيسة لما ابتليت بتلك الفتاة الشبه الميتة، وما احتارت في أمر الزواج، الكثيرون يتمنون رضاها ليتزوجوها، لكن ما بيدها حيلة مع البنت المشلولة، فلا يرضى بها احد بهذه الشاكلة..

– اي والله من مدَّ اليهما يد المساعدة فكأنه حج الى بيت الله الحرام.. ذلك الراتب التقاعدي كان يكفي لايفاء ايجار هاتين الغرفتين فقط، وماذا عن المأكل والكسوة ومصاريف الماء والكهرباء التي كان يستوفيها منك (الحاج مصطفى) كضريبة معينة.. ام كان يكفي لابتياع بعض حاجات البيت، هذا من جهة ومصاريف الاطباء لابنتك المشلولة من جهة اخرى، كانت بحاجة الى مال اكثر وزادت من الطين بلة.. ان "شاناز" هي في عامها السابع عشر، فتاة بضة، تشبه والدها بعيونها الزرقاء وبوجنتيها الموردتين وشعرها الكستنائي تشبهك، احدى الغرفتين كانت مخصصة لها، اما الغرفة الثانية فكانت مخصصة لك ولزائريك المريبين، والغرفتان كانتا تواجهان بعضهما البعض كأرملتين منكودتي الحظ داخل صالة صغيرة. الغرف الثلاث الأخرى والصالة كانت في القسم الاعلى من الدار، كان يقيم فيها (الحاج مصطفى) وزوجته نصف الضريرة وابنتهما المترملة. شاناز وهي راقدة في البيت ابدا، هذا ليس بمشيئتها او مشيئتك.

غدت معين بؤسك وشقائك، لا تتحدث واياك إلا نادرا، ترمقك من

الأسفل فقط بعينين أشبه بعيني الصقر، تنهال عليك نظراتها المترعة بالمغزى. لا تودك، يبدو بأن احساسا بالشهامة يختلج في دخيلتها ويتجسد في تلك الايحاءات. حتى اذا ما نادتك لتلبية حاجة ما، لا تتفوه بكلمة (أمي) بل تناديك "يا مدام هه تاو، اريد الماء"، "يا مدام هه تاو أريد ان اقضي حاجتي"، "يا مدام هه تاو هات لي لقمة آكل". كان هذا التصرف يسبب لك حزنا عميقا. يتبرعم قرار في قرارة نفسك بأن تتريكها وحيدة وتهيمين على وجهك الى اية بقعة كانت، لكنك تتذكرين بأنها فلذة كبدك، حتى لو جرّعتك السم الزعاف سوف تتحملينها. حاقدة عليك، مشمئزة من تصرفاتك، يختلج في دخيلتها احساس بالإباء ويتجسد في ذلك الموقف، ولا تخطر ببالها بأنها سبب شقائك وتدنيس سمعتك. فاستحالت طهارتك الى خرقة نجسة تتقاذفها الأيدي، طردوك من تلك الحارة بإقرار جماعي، وقد اخفوا شناعاتهم بذلك وزغردوا لهذا النصر، كبائر مخفية جمة تداريها جريمة صغيرة معلنة في هذا الشرق اللعين. اتخذت قرارك بعد ذلك بأن ترحلي عن مدينة كركوك نهائيا، وتنتقلي مع شاناز الى هذه المدينة. استقر بكما المقام عامين في دار (الحاج حسوك)، هذه المرة كانت في غرفة ونصف غرفة، كانت في وقتها مستودعا، شرعت في تنظيفها وترتيبها ونضدت بعض الاثاث الفائض فيها. فرشت سريرا لـ "شاناز" فيها كي تستلقي عليها وتوخزك بنظراتها الصقرية. كانت الغرفتان منعزلتين وقريبتين من مدخل الدار، اما بيت (الحاج حسوك) فهو واقع في اقصى الباحة الطويلة العريضة.. منذ ان ابصرت الدنيا وهي مشلولة. تراقب كافة حركاتك، تحصيها، يتضح في عينيها انها تشمئز من كافة الوجود والموجودات. الوجود عندها عبارة عن اربعة جدران. الكون في نظرها بمثابة غرفة.. ويا للفجيعة الكبرى

عندما يحشر الكون في غرفة واحدة..! وكافة كينونات الانسان الأخرى مع وجودها غير كاملة ومحاطة بعبثية حياة الانسان، لو كانت تملك أطرافا سليمة وأن في مقدورها لدمرت الكون بغضبها. لكنها عاجزة، تأكل وتقضي حاجتها وهي مستلقية. أغلب الأحيان تتضرع في قرارة نفسها الى الله، كي تتداعى الدار فوق رأسيكما، كي لا تتحول هاتان الغرفتان بعد الى مرتع للرجال المريبين الذين يرتادون غرفتك. كافة الأشياء مخفية عنها، عدا سماع اللهاث والهمسات التي تنهشها من الأعماق، احيانا رغبة مكبوتة تصخب في اعماقها، وكان بودها لو تحقق رغبتها الانسانية. لكن من الذي يلتفت الى مشلولة مثلها، والشفقة الانسانية تفعل فعلها؟ لا يدنو منها أحد، ان الفتيات اللائي في عمرها، هنّ الآن في بيت الزوجية، ويرعاهن حنان ذكر ما، ويجعلون منهن امهات للأطفال. ان حقدها ذو حدين، حرمانها من كافة حقوقها الانسانية من جهة، وشعورها بالشهامة يهزّها من الداخل من جهة أخرى.. إن أهل بيت (الحاج حسوك) مشغولون بالمال وايجار البيت، لا يهمهم أمر هؤلاء الذين يوزورونك. بعض منهم من معارفك في كركوك، نادرا ما كان الحاج يسألك:

– يا ابنتي، مثلما أرى واسمع بأن لديكم كثيرا من الضيوف، يبدو انهم من أقاربك ومعارفك؟.. حذار يا بنيتي، ان دنيانا هذه ليست بخير ولا يرحم أحدا بآخر..

تجيبينه خجلة وبابتسامة متهكمة:

– ياعم الحاج، سامحكم الله، من يكونون اذن؟..نعم انهم أقاربي ومعارفي، يزورونني.. انهم من ابناء عم وعمات "شاناز"..

الحاج حسوك وكأنه يرتاب من كلامك ولم يشأ ان يعرف المزيد من

قصة حياتك. قام بإيوائك كإمرأة منكوبة ومغلوبة على أمرها. وكان يبادر الى السؤال بدهشة:

– إذن لماذا لا يهبون الى مساعدتك..؟

تجيبيه بقهقهة مزيفة قائلة:

–كثر الله من أجر ثوابهم، انهم لا يتوانون في مد يد العون والمساعدة حسب الإمكان، لولاهم لما تمكّنا من العيش..

لكن شاناز عندما كانت تسمع الحديث الدائر بينك وبين الحاج حسوك، كانت تدر بأنك تكذبين. عندما تلج الى داخل الغرفة، تنهشك بعيونها الصقرية، بأن هؤلاء لا يمتون بصلة الى والدها، كانت تريد ان تنفجر في وجهك وتصرخ بأنك كاذبة. قد قذفت بكل القيم في الحضيض. تجعل بنظراتها تلك ان تنهش الديدان دخيلتك.. تعيث آلاف من الديدان من قمة رأسك لحد اخمص قدميك، تنهشك من الداخل، فيتحول جسدك الى وعاء من الدم والقيح و الصديد، تشعرين بثقل وجودك تظلم الدنيا امام باصرتيك، وتخطر فكرة على بالك، بأن تسكبي على نفسك قنينة من النفط ولتستحيلي الى حفنة من الفحم، مثل جارتكم (حه لاو) في كركوك، فقد جرعت قنينة من السم القاتل على عناد زوجها، نجت من ضربات زوجها نصف الضرير (قادر).. ليس في وسعك تحمل وزر نظراتها اكثر من هذا. لكن عندما تنظرين اليه تنسين كل المساوئ فتقررين ان تبقي لأجلها، كنت تقبعين في احدى الزوايا وتغسلين شقاءك بالدموع الحارة..

***

في اليوم الذي أذيع فيه نبأ مقتل والدها، كانت شاناز في عامها الثاني، لم يبق لك ثمة من مبرر يجعلك تمكثين في القرية، القرية التي

استقريتم فيها، اذ بعد سنة من زواجكما صار واحدا منهم، وانت بدورك تبعته، فكنت حاملا بها. اذ لم يكن لك ثمة احد في المدينة لتعيشي في كنفه. بعدما آلَ اليه الحال، جمعت بعضا من حاجياتك في الهزيع الأخير من احدى الليالي، حملت "شاناز" على ظهرك وسلكت درب المدينة جنبا الى جنب مع القوافل.. كانت شاناز لم تزل راقدة في السرير. بعد سنوات من ترملك انتظرت من يلتفت اليك ليصبح والدا لـ(شاناز) ويدفئ مخدع لياليك الباردة.. ان ذلك الجسد نصف المشلول شوه فتنتك، كنت تتضرعين في قرارة نفسك الى الرب ان يعيدها الى خزينته، ليس في وسعك اكثر من ذلك، اصبح شللها ضريبة تدفعينها من جمالك. والحب الذي لم يصل الى نهايته وذهب ادراج الرياح، نفضت يديك من كل شيء والزوج بدوره اصبح اثر بعد عين ومثواه مجهول، ولم تكن تنتظر الى ان تشب عن الطوق، ويخطفها شاب ما وتنقذك منها، وانت بدورك تعثرين على زوج ويصان حياؤك، كنت تتضرعين الى الرب بأن لايجازيك بشر اعمالك، وقد سبق السيف العذل، غرّر بك الشيطان وفعل فعلته، لسنوات وسنوات كنت تشدين على نواجذك، كنتما تقتاتان على ذلك الراتب التقاعدي عيشة معذبة. بجانب هذا كنت تعملين خبازة وغسالة ملابس في بيت الجيران. لكن بعد فوات السنين فعل الارهاق فعلته بجسدك، ولم تولي ذلك أيما إهتمام. الى ان في احد الايام كنت منهمكة في الغسيل في بيت "گلّدەران" اعتراك ألم مفاجئ في خاصرتيك، كأنه رصاصة اخترقتها، وعلى اثره غبت عن الوعي، عندما أفقت، وجدت نفسك راقدة في المستشفى. حذرك الأطباء بأن كليتيك اصيبتا بالبرد، اذا استمريت على هذه الحالة فسوف تزداد الاصابة سوءا. من يومها تجنبت الاجهاد. مرات عديدة كانت تخطر على بالك ان تتعمدي إجهاد نفسك، بمثابة

انتحار بطيء كي تفلتي من تلك التعاسة. نظرة واحدة الى "شاناز" كانت كافية لإجهاض كل تلك الاحاسيس. كنت ترفعين من معنوياتك لأجلها، لتعرفي الى أين يتجه بكما الحال والأحوال. الفقر والحب عدوان لدودان لبعضهما. او كما يقال عندما يدلف الفقر من الباب، يهرب الحب من الشباك. انهما في صراع سرمدي. ليس هناك قوة خارقة في مجتمعنا بمقدورها ان تربط فيما بينهما. لقد انقضى على موت هذا الاحساس في داخلك ما يربو على سبعة عشر عاما. أم انهم نحروه قسرا وخمد، ورشوا دمه على جهاز زفافك، خشية من ان لا تفض بكارتك وتقوم القائمة. كان ماضيا قد ذهب وولى. قذفوا به في لجج بحر اسطوري، مثل آلاف الشنائع في هذا الشرق اللعين. لكن (في هذه الصبيحة) كانت كل الأشياء بخلاف ارهاصات دواخلك كانت مثل الفقاعات على سطح الماء تنتفخ وتكبر ومن ثم تنفجر، لم تدركي في أي جزء من أجزاء جسدك كان يختفي حب (قارەمان) كل هذه السنين. كمن يستفيق من نوم كنوم اصحاب الكهف، ينتفض وترد اليه الروح مرة اخرى، ويتصرف في دنياه الجديدة كما كان في دنياه الغابرة.. المآسي قد أنستك بأن حبه استحال الى جبل من النار، وكان يضطرم في حالات غياب الوعي.. لم تكوني تظنين بأن الحياة وهلة قصيرة، تجيء وتمضي في غمضة عين. مثل عابر سبيل مرهق ومتهالك يمرق امام باصرتيك، ويرنو اليك بنظرة شفوقة. عندما سمعت نبأ مصرع والد شاناز، حزنت كثيرا ولولتِ وزعقت كثيرا، لأنه كان زوجك حتى ولو بالاسم، كان بمثابة شاطئ الأمان لك، ذرفت الدموع مدرارا لأنه أودعك في عهدة زمن عنيد مع فتاة كسيحة، يملي عليك الواجب ان تفني جمالك من أجلها..مرات عديدة قال لك (لو كنت في السماء السابعة لهبطت اليك).. كلام قارەمان

هذا لسعك من الأعماق وشعرت بشيء من الطمأنينة. وعندما تأخذين الموضوع مأخذ الجد، تستهزئين بنفسك،وكنت تظنين بعد سبعة عشر عاما بأنه لم يبق من "قارەمان" حتى ترابه، فقد تضرج بدماء شبابه منذ سنوات، أم انه أمسى عصا في يد القنوط واليأس ولديه سرب من الأطفال،وقد ترك الطيش والترهات جانبا، لكن هذا الظن قد أُجهض، لأنه اتضحت لك فيما بعد ماذا جرى لـ(قارەمان) طوال هذه السنين. كنت تقرئين في سحنته تاريخا عصيبا، وآثار المَاسي بادية على محياه.

كأنك تقرئين سجلا حافلا في تجاعيد جبهته. اكتشفت هذا الصباح بأن سيرة ما قد تتحول بعض الأحيان الى مسمار هائل ويوقف الزمن في مكانه ويشله عن الحركة..

***

١١

يومها كنت ما تزالين باكرة، وقارەمان بدوره كان طالبا في الثانوية، كان يجيء كل صبيحة يوم الجمعة ليزورك، كنت تعرفين بأن مجيئه سوف يكون بعد الظهر، اذ في الصباح يأخذ قسطا من التجوال والتسكع في اسواق المدينة، فقد اعتاد على ذلك، لذا كنت تستأذنين من والدتك بحجة زيارة بيت صديقتك "نسرين"، فتنطلقين متدثرة بعباءة امك، وتذهبين مسرعة الى تلك الحديقة التي كانت في وسط حارة (المصلى)، تقطفين بعض الأزهار في غفلة من البستاني، ثم تعودين بنفس السرعة وفي الطريق نفسها، تدلفين البيت وترمين بالعباءة في احدى الزوايا على وجه السرعة. تقفين في الباب لحين ظهوره ولا يقر لك قرار، دغدغة مفرحة كانت تصخب في داخلك، تنغرزين في مكانك كشجرة جوز منتصبة لا تؤثر فيها شتى الأعاصير، تسهين عن نفسك، متخيلة مقدم (قارەمان)، تضعين الزهور الصفراء والحمراء بين أناملك الرقيقة الناعمة، تنظرين اليها بعين كليلة، مبهورة، ثمة بسمة تحط على شفتيك الورديتين كعصفورة طائشة. تتحسّسين الزهور بأيد حنون، كأنك تمسدين عزيزا نائما. كنت تخشين ان تتسخ او تسقط تويجاتها او تذبل، عندما يظهر تسري قشعريرة في جسدك كصعقة كهربائية، تهزك من قمة الرأس الى أخمص القدمين، كنت تجنين من الغبطة. مرات عدة تدلفين الى باحة الدار، تحتضنين الزهور الصفراء والحمراء وتحتكينها بحلمتي نهديك، كنت تضعين حلمتي نهديك بين الزهور من خلل فتحة ثوبك، كأم ترضع

طفلها، تغمضين الجفون، وترفعين برأسك الى السماء، تتنفسين الهواء الموجود في فضاء فناء الدار ملء رئتيك، كان كل شيء تفوح منه رائحة سعادة خفية. كنت تنفذين هذه المهمة دون علم والديك، وتسارعين كرة اخرى الى باب الدار، ترين (قارەمان) وهو يقترب من الباب.عندما كان يجيء الى هذه الحارة يلتفت حواليه خيفة وحذرا، لئلا يراه احدهم، او لعلهم يراقبونه، بعد ذلك ليدبج الناس حولكما عشرات الأقاويل والشائعات فيما بعد كان يخاف من سمعتك وشرفك. اذا مسّوك بسوء سوف يتألم ويؤنب نفسه على ذلك. ان حبه كان من نوع آخر، كان مقترنا بالبؤس وموت أبيه وتشرده. وقد وجد احساسه الحقيقي في تعاستك، ان تساوي مصيري انسانين في التعاسة والشقاء، يصبح خيطا اسطوريا ويخيطهما بالبعض دون ان ينقطع الى الأبد.. لكن.. تخدعين أمك يوم جمعة آخر، بحجة زيارة بيت صديقتك "نسرين"، فتحررين نفسك من جحيم الدار، تفلتين من تأنيب وثرثرات أمك. وقد كنتما على اتفاق مسبق مع "قارەمان" كي تقوما بجولة في المدينة سوية، وتتحدثا معا ما شئتما لإطفاء ظمأ فؤاديكما. كي تصبحا ملك ذاتيكما، وتدعان الدنيا وامرها خلف الظهر لعدة ساعات. ذهبت على الفور لإعارة عباءة "آسيا" وجعلت منها جناحين أسودين، وتنحدرين مع لظى رغباتك الرائقة ودون شائبة. ويكون قارەمان بدوره في انتظارك بمحاذاة القمامة الكبيرة المنتصبة في وسط حارتي (الشورجة) و(طلضية كان). كان يتحول وجوده بأسره الى انتظار. عندما كنت تلتقين به كان يهرع الى استقبالك بشوق عارم، كانت الدنيا لا تسعكما من الغبطة، ولم يكن بوسعكما اتخاذ اي قرار، ويشل ذهناكما عن التفكير، تسحبكما خطواتكما صوب حارة الشورجة من غير هدى. تتفقان بأن تتسكعا. في

الأزقة قليلا. كنتما تذرعان طرقات عدة أزقة مع قلق وخوف لذيذين، كان اهل الحارة يرمقونكما مذهولين، مندهشين، اذ مثل هذه الوقائع في حارة شبه قروية هي واضحة، الصبية والفتيان كانوا يتندرون عليكما، او في احد الأزقة ثمة امرأة كانت تقول بجارتها:

– انه آخر الزمان، كيف ترافق النار البنزين؟ والله انها لفتاة ضالة، تفٍّ على حيائك..

والأخرى كانت تصدح كالقبج وتجيبها:

– لو كان لها أهل، لقطعوها إربا كي تنهش لحمها الكلاب..

كأنهن لم يحك جلدهن في وقت ما التفكير في الذكر، ولم يكنّ متلهفات للارتماء في احضان رجل ما؟! لذا يتقيأن فوق رؤوس أمثال هؤلاء الناس! لقد نسين ماضيهن، أم كن يتعمدن النسيان. كنتما ترنوان الى بعضكما بابتسامة خجولة وتطأطئان الرأس. رغم ان قارەمان لم يترعرع في ظل الوالدين كثيرا، لكنه كان شابا رزينا، مؤدبا، ان حرمانه من كنف الأهل لم يكن عائقا في سبيله، ليحيد عن الصراط المستقيم أسوة ببقية الشبان ويعتاد على عشرات السيئات. وانت لم يكن لك غير أبيك الحوذي وأم عجوز. وكان لهما قبلك بنت وولد، فقد مات شقيقك غرقا، عندما كان يمارس السباحة في مياه تلك الغدران.. القريبة من حارتي (إسكان) و (الشورجة). كانت تلك الغدران متكونة من مياه الامطار، وتملأ الوديان والشعاب في الهضاب المحفورة لمقالع الحجر وتتجمع فيها. عمق كل غدير كان يعادل قامة رجل مرتين، ولا تنضب فيها المياه الى الخريف المتأخر من السنة. غرق فيها صبية كثيرون من الأحياء المحيطة بها. وشقيقتك كانت اصغر منه سنا ماتت بمرض التيفوئيد، وولدت انتِ بعدهما..

على حين غرة كنتما تدركان بأنكما قد فتشتما اكثر الأحياء، ثم كنتما تقفلان راجعين وتسلكان السكة الرفيعة بمحاذاة المقبرة، من هناك تنحرفان عن الطريق في اسفل القمامة الكبيرة قبالة الدبخانة، تحثان الخطى خلل المزارع وعزرالات وبيوت (كلّچيەكان) صوب حارة (بولاغ) ولا تنتبهان لنفسيكما من جراء الكلام، بعد ذلك تجدان نفسيكما في الأزقة المغلقة في حي (سيد سروەر). بعد ذلك تجدان نفسيكما في الشارع المقير المتجه الى السليمانية، من هناك تصعدان الطريق المنحدر في منطقة (برتكية). حين يستبد بكما الظمأ تلجان مسجد وتكية (الشيخ علي الطالباني). ترتويان من ماء الحبب هناك. كان خادم التكية وزمرة من الدراويش يبحلقون فيكما ويهزون الرؤوس محتجين، أم أنهم كانوا يفعلون ذلك حسدا ومن ثم يشرعون في الغمغمة:

– استغفر الله، انه نهاية العالم، لم يبق لا دين ولا حياء، نبتهل اليك يا شيخ علي ان تدحر هذا الدهر..

فلا تكترثان لثرثراتهم وتسهيان عنها، ومن هناك ايضا تلفان حبل الطريق نحو مرتفع مقبرة (الشيخ محي الدين) وكان (قارەمان) يتحين الفرصة يلتفت يمينا ويسارا بلهفة وعندما يتأكد بأن المكان خال من المارة، يهجم عليك ويقبلك عنوة قبلتين، وانت بدورك تفلتين منه بوجل وتنأين عنه يحمر وجهك. وتظلان صامتين لعدة دقائق اثر فعلة قارەمان تلك. رغبة مجنونة كانت تتلجلج في داخلك من جراء فعلته هذه. وكنت تتمنين الارتماء بين احضانه في تلك اللحظة وتنامين. عندما تستفيقين من حلم اليقظة هذا، كنت تعرفين بأنها تستحيل تلك الفعلة وربما تلطخ سمعتكما النقية. من ثم تشرعان في قراءة الكتابات المحفورة على القبور والأضرحة مع الحديث والضحك واحدا تلو الآخر. ثم عندما يعتريكما

السأم جراء ذلك والثرثرة، تعودان، ثم تسلكان سكة مستقيمة صوب "آخور حسين" ومن هناك الى القلعة. تصعدان مدرج القلعة بدرجاته باللهاث والقهقهة. تتجهان صوب ضريح "النبي دانيال" وتحومان عدة دورات حول باحة الضريح. كانت هناك ثمة نساء كرديات كادحات، كن يلتصقن بالحاجز الحديدي للضريح ويشرعن في التضرع والدعاء. او بعضا منهن كن يشددن اقفالا على قضبانه الحديدية. قالت لك أمك ذات مرة:

– ان من يشد القفل على ضريح "النبي دانيال"، ويعود اليه بعد يومين اذا وجد القفل مفتوحا فهذا يعني بأن أمنيته تتحقق..

لذا اقترحت على (قاره مان) ان تذهبا الى السوق الذي يقع أسفل القلعة لابتياع قفل وشده على قضبان الضريح، ليت امنيتكما تتحقق، بدر منه ابتسامة شزرة، رمقك بنظرة زائغة وقال:

– ماذا؟ هل تفكرين مثل اولئك المتخلفات ايضا؟..

لم تنبس ببنت شفة وسحبت اقتراحك. كانوا يقولون أن في أحد الأضرحة، ان أية امرأة اذا كانت لديها أمنية، كانت تذهب وتشد قفلا عليه. عندما تعود بعد يومين، كانت تجده مفتوحا.

وكانت تسحب القفل من الضريح بفرح غامر، وتمنح خادم الضريح مالا كثيرا. وكانوا يقولون بأن خادم الضريح كان بحوزته رزمة من المفاتيح لهذا الغرض، يشرع في الليل بفتح بعض هذه الأقفال بغية الحصول على أموال طائلة من النسوة. وقد اغتنى اثر هذا وفتح محلا تجاريا في المدينة، وكان يسخر من عقول تلك النسوة. بعد ان ترتشفا مغرفتين من ماء الحبب هناك ايضا، تهبطان على الدرج في الجهة الثانية من القلعة. ثم تنحدران صوب سوق الحلوجية، ومن هناك ايضا الى

الأزقة الضيقة في حي (ضقور). عندما تقتربان من البيت، تودعان بعضكما البعض، يعود (قاره مان) أدراجه الى القسم الداخلي، وانت تنحدرين متعبة وبقلب مكلوم، كنت ترين أمك واقفة أمام الباب وهي تنتظر عودتك. عندما كنت تنتصبين قبالتها كانت تقول لك بلهفة وشبه حانقة:

– يا ابنتي لقد رجع والدك واستفسر عن سبب تأخرك، أتعرفين منذ متى وانت خارجة.؟.

كنت تريحين أمك بكذبة بيضاء:

– أماه، لقد كانت "نسرين" بمفردها في البيت، ألحت عليّ في المكوث بجانبها، أفلَتُّ منها بألف حجة وحجة. وامك بدورها تطمئن لهذا القول رغم انها كانت متشككة منه. ثم تلجين الى الداخل بإستحياء. عندما يراك والدك كان يحملق فيك بعين كليلة ويزفر آهة باردة..

***

١٢

أخبرتك "نازدار" ابنة عم "قارهمان" ذات مرة في طريق المدرسة:

– بالأمس جاء عمي بإبنه وسوف يمكث عندنا..

– ولِمَ..؟

اجابتك مشمئزة:

– انه قروي، لا ارتاح اليه، يريد ان يدخل المدرسة.. تعرفت عليه عندما كنتما في الصف الثاني الابتدائي..

فدخل "قاره مان" العام نفسه مدرسة الشورجة الابتدائية للبنين. سألت "نازدار" مرة اخرى في الطريق ايضا:

– كيف قبل في الصف الثاني وهو للتو جاء عن القرية..؟

أجابتك شبه حانقة وبدلع طفولي:

– تقول أمي أنه درس القرآن في (الكتّاب). لم تدركي اي شعور جامح كان يشجعك للدنو منه. ربما كان بدوره يتودد اليك اكثر وينشرح صدره لك. وكل مرة عندما كان يصعد الى سطح بيت أهل "نازدار" لمطالعة دروسه. كنت بدورك تتناولين كتابا كذبا او مراوغة ، فتصعدين سطح الدار، كان يفصل بين دار عمه والدار التي تسكنون فيها حائط واطئ، حيث تعارفتما هناك، حين كان يستعصي عليك أمر ما، كنت تسألينه. رغم انه كان قرويا، لكنه كان نظيف الهندام، وذا عينين سوداوين، حلو المعشر، لا تفارق البسمة شفتيه، وعلامات الجرأة والجموح والطيش كانت بادية عليه، ولا يعرف للخجل معنى.

في السنة ذاتها اصبحت أسيرة صداقته، ونسيت ابنة عمه "نازدار". كنت تذهبين معه الى المدرسة يوميا، كان هو يفارقك عند مدرسة البنين، وانت تنحدرين صوب مدرسة البنات. يومها كنتم تسكنون دارا في حارة "بيريادي" مجاورة لبيت عمه في احد دور اليهود القديمة التي تم اخلاؤها في السنين الأخيرة وتحولت الى مدرسة.. كانت تتألف من أربع غرف وصالتين صغيرتين. غرفتان وصالة صغيرة تقع قرب مدخل الدار، كانت نوافذها مطلة على الطريق القاحل. كانت من تلك النوافذ القديمة التي يعود عمرها الى قرنين من الزمان، ربما كانت من صنع احد اليهود، او من صنع العثمانيين، لما تزل شاخصة على حالها.. كانت رسومات عديدة وعجيبة منقوشة على جدران الغرف والباحة او معلقة عليها. كانت تمثل عالما مزدحما بالخرافات وقد علق فوق كل باب من أبواب الغرف رأس عنزة برية، او رأس ضبع انثى مقتولة. ان رؤوس العنزات البرية كانت تعبيرا عن الوحشية والقوة وذات مغازي عديدة لحياة هؤلاء الناس البسطاء، ان رأس الضبع كما كان يقول والدك "ان انثى الضبع دلالة على ان أي شخص اذا ولج هذا البيت فسوف تصفو نياته ويرضى عنا. ألم تسمعي يقولون بأن فلانا يغرر بك على وجه السرعة، كأن بحوزته العضو التناسلي للضبع".. او صور عديدة ملوثة كانت ملصقة بالحيطان. احداها كانت صورة رجل ضخم الجثة، عريض المنكبين، يلف حول رأسه وشاحا أخضر. رجلاه ملفوفتان لحد ركبتيه بجلد النمر، يحمل في يده اليمنى سيفا، وفي الأخرى رأس رجل منحور، يقفل مهابا وبالبسالة، وجسد الرجل المنحور مضرّج بالدماء في الارض.ثمة بعض النسوة المشعوذات يحطن بالجثث ضاحكات.. او بعض صور للرجال والنساء مزودة بالأجنحة. تمسك من ذراع بعض

الرجال والنسوة وتنزلها الى جوف نيران متأججة. بعض منهم يتخبط خللها مع العويل والبكاء، يمدون الأيدي للرجال والنسوة الممسوخات.. او كانت هناك عيون مسبلة محفورة على الفخار معلقة على النوافذ لدرء العيون الشريرة من خلل النوافذ والأبواب. الغرفتان والصالة الاخرى تقع في الجهة العليا من الفناء. كانت مساحة أرضية الباحة الاسمنتية تربو على مساحة سجادتين في وسط تلك الغرف والصالتين، كانت شجرة توت عملاقة وسط الفناء بأوراقها الكثيفة تغطي ثلثي فضائها. عند حلول فصل الصيف كانت تتسلل فروعها المتداخلة اسرابا من العصافير ليلا. تملأ الدار بزقزقاتها الآسرة الى الهزيع الأخير من الليل وفي الشتاء تغدو ملجأً لأسراب الزرازير. تتحول تلك الليالي الشتائية الى هرج ومرج. فقاطني الدار كانوا يشرعون في قنص الزرازير، ويقومون بتأمين مؤونهم من اللحم لعدة ايام. وكانوا ينفذون هذا ايضا في فصل الصيف. بهذا كانوا يشبعون من اللحم بعملية القنص من شجرة التوت، وكان عماد حياتهم من مؤونة اللحم.. فقد كان "نادر السجان" وزوجته وطفلاهما يشغلون احدى الغرفتين قرب مدخل الدار. رغم انه كان يناهز الاربعين، لكن زوجته كانت امرأة فاتنة صغيرة ومكتنزة الجسد تدعى "آسيا" وزوجها كان جاف العود وذا وجه مجدور ويميل لون بشرته الى السمرة بعض الشيء. كنت ترين بأم عينيك كانت تصعد سطح الدار في غياب زوجها، وتلتقي مع "سالار" الذي كان موظفا وسيما، يسكن في الدار التي خلفكم، كانا يمضيان قرابة ساعتين في الحديث والضحك وحركات غريبة، كنت ترتابين من تلك التصرفات اليومية لـ"آسيا" لذا انبأت امك بذلك وأردفت بدورها قائلة:

– لعنها الله يا بنيتي، ان زوجها رجل طيب وظريف. لكن ماذا يصنع

معها، انها لا تكترث لأيما شيء..

– لكن يا أمي، ان زوجها رجل هرم، هي كأنها فتاة ذات اربعة عشر ربيعا. كيف اقترنت بهذا السجان؟.

كانت أمك تجيبك وهي تزفر زفرة باردة غير مكترثة:

– يا بنيتي، كما تقول آسيا ذاتها– ان نادر هذا ابن عمها، كانت وحيدة والدها الفلاح يعيشان في القرية، لم يكن لديه من اقارب غير "نادر" لذا أوصى "نادر" بأن يرعاها بعد مماته. عنما قضى والدها نحبه أتى بها الى المدينة، بعد مدة وجيزة تزوجها وهي لا زالت قاصرة..

في ذلك الحين لم تكوني تدركين كنه مثل هذه الأفعال، "سالار وآسيا" جعلا منك وسيطة، كانا يتبادلان من خلالك كلاما مرموزا، اذ لم يكن يشكان في افشائك سرهما. الى ان رأيت ذات يوم بأم عينيك انهما كانا في غرفة (آسيا) ذات مرة، كان يحتضنها وينهال عليها بالقبلات عندما داهمتهما دون قصد، فرأيت جسد (آسيا) يقشعر من الرغبة وقد احمرت وجنتاها، وخدها الأيسر كأنها تفاحة قضمها اسنان طفل. كانت آثار أسنان (سالار) ماثلة عليها. عندما جحظت عينا آسيا من شدة الغضب والاضطراب وزحفت قليلا من حضن سالار، وقالت لك:

– يابنت، أوصدي الباب، اذهبي راقبي الباب سوف يعود هذا المجدور اللعين..

ربما تسربت آثار تلك الفعلة الى داخلك، واستحالت الى خميرة تصرفاتك الحالية حيث ان أيام الصبا هي معين كافة سيئات البشر. يقول المثل الكردي "اذا تأقلمت على عادة ما في الطفولة فمن الصعوبة ان تقلع عنها حتى في سن الشيخوخة".. ان الغرفة المقابلة لغرفة أسرة "نادر السجان" كانت تشغلها أسرة "فتاح هموند" المتكونة من ثلاثة

أفراد، فتاح هو وزوجته وولدهما الوحيد "سردار". كنت تكبرين سردار بعام واحد ولم تكوني ترتاحين لمرآه، ولاتكترثين به. كنتما تشرعان مرات عديدة في المشاجرة، يهجم عليك، ويشد من شعرك وكان يشبعك ضربا مبرحا في وسط الباحة، ريثما تهرع اليكما أمه:

– ليكن فداء شعرك ، والله اذا اقترب منك كرة أخرى فسوف أكويه بمحراك التنور..

يبدو ان كره "سردار" تجاهك كان من جراء تودك لـ (قاره مان)، وكنتما تراجعان الدروس سوية، وكان هو فتى مشاكسا وكسولا.. واحدى الغرفتين في الطرف الأعلى كانت تشغلها أسرتك، أما الثانية فكان يعيش فيها رجل عازب مثل "درويش صالح"، كان يعيش وحيدا منذ مكوثكم في تلك الدار، ويسكن هناك دون أهل وأقارب. كان في أغلب الليالي يأتي الى والدك، ويتجاذبان أطراف الحديث، أو كان يروي سيرته الذاتية. في احدى تلك الليالي سأله والدك:

– يا درويش صالح يبدو أنك مقطوع عن شجرة..؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة، وهز رأسه وأجاب قائلا:

– آه.. يا محمد امين، اي والله انها لحكاية طويلة..

وبعد ان يلح عليه والدك ويقول له:

– دعنا نسمع ذلك، منذ مدة وانت هنا كنت بمثابة الأخ للجميع، تنهيو تنصح أهل هذه الدار. لنعرف من انت ومن أين؟..

ثم هز منكبيه ومسد لحيته الطويلة التي تربو على انجين، وزفر زفرة حرّى قال:

– اصارحك يا محمد امين، أني نزحت منذ الصبا الى مدينة كركوك.

كنت امتهن كل سنة عملا ما، وصلت الى هذا العمر بشقاء، ولدت في منطقة "دزهيى"، وقد ذاق والدي هناك شتى الايلام والعذاب الى أيدي أغواتها، اذ لم يكن يرضخ لهم وكان لهم بالمرصاد، وبدورهم جرّعوه مرارة العلقم والعذاب المميت. الى ان أصيب بمرض عضال وقضى نحبه على أثره. لم يكن لنا أقارب في تلك قرية التي كنا استقررنا فيها. وقد سمعت منه بأنه نزح في الأصل من منطقة "ديار بكر" ولجأ الى هذا الجزء من كردستان منذ الطفولة. كنت لا أزال طفلا عندما ماتت أمي وسبقت موت والدي.. بعد ذلك كانت والدك يسائله قائلا:

– ألم تتزوج كل هذه السنين؟

يجيبه بحزن:

– نعم.. مكثت معي شهرا واحدا، حاولت كثيرا معها ان تبقى لكن دون طائل، لذا اضطررت أن أطلقها..

يضحك بعد ذلك ويقول:

– دعك يا محمد أمين من هذا، يكفي هذا القدر..

ويدع والدك وشأنه ويشرعان في مسامرة عن امور أخرى..

استفسرت من "آسيا" ذات مرة:

–حسنا، لمَ لم يتزوج درويش صالح؟

اجابتك بدورها بقهقهة مغناجة:

– يا بنت، يقولون، استغفرك ربي، يقولون بأنه خنثى، لذا هجرته زوجته..!

كنت تشاركينها الضحك.. وقد مضى على هذا اربع سنوات في حد الأيام لم يستيقظ درويش صالح كعادته من النوم عند الفجر ليتوضأ للصلاة قبيل ذهابه للعمل. كان الوقت ضحى، ووالدك يذهب للعمل في

ذلك اليوم، لأنه كان يشكو المرض بعض الشيء وقال لأمك:

– يا امرأة، لم أر درويش صالح لينهض للصلاة هذا الصباح؟

اجابته أمك عابسة نوعا ما :

– لا عليك، ربما تأخرت عن الصلاة وهو قد صلى وذهب الى العمل..!

بيد أن والدك كان مترددا في قولها. غير انه شعر بالطمأنينة بعض الشيء، ولم يضف على ذلك بشيء.

كان من عادة درويش ان يعود يوميا من العمل وقت العصر. كان ملطخا بالجص من فروة رأسه الى اخمص قدميه. اذ انه كان يعمل مشعلا للكورات. لذا كان يتسخ بالجص وسخام النفط الأسود. فيبدو أشبه بطائر النفط.كان يتلألأ فقط بياض عينيه، يلج على الفور حجرته ويحمل صرة ملابسه الأبدية تحت ابطه ويذهب للاستحمام في حمام (خورشيد قايچي) وبعد عودته من الحمام تراه وقد تحول الى درويش صالح آخر مغاير للأول، وجه ناصع البياض مائل الى الحمرة ومهندم. ومن هناك في الطريق كان ينحدر الى مطعم كباب "مصطفى كاور" لتناول غدائه. وكان يصادف عند عودته ان تكون والدتك قد صنعت لتوها الشاي، فكان يتربع بجانبها قائلا لها:

– يازوجة أخي، صبي لنا شايا معطرا..

لكن في تلك العصرية لم يكن له أي أثر، وعند حلول المساء اعترى والدك القلق عليه وقال:

– هذا ليس من عادة درويش صالح. انه لا يتخلف عن موعده..؟ إنه لم يحد عن هذه القاعدة قرابة خمسة عشر عاما قيد أنملة..؟!

ثم وجه الكلام الى والدتك بإنقباض:

– يا امرأة، والله قد خطرت لي بأن هذا الصباح لم أره يقوم للصلاة،

وها قد حل المساء وليس له أثر..

من ثم بادرك بالقول أمرا:

– يا بنيتي "هەتاو" اذهبي الى حجرته، أخشى أنه قد حدث له مكروه. او ربما يكون مريضا. انه عنيد لدرجة انه اذا مرض لا يُشعِر احدى بذلك..

هرعتِ على الفور صوب حجرة درويش، كان باب غرفته موصدا، في البدء مددت ذراعك خلل فتحته الصغيرة نحو الداخل. واذا به يند من الباب صرير مع مد ذراعك، أشبه بأنين طفل مريض، وانفطر منه شق، فتحت الباب. كان الدرويش يبدو نائما وهو مستلق على ظهره في الفرش. كان ملتحفا الى نصفه بلحاف مرقع. ناديت عليه من بعيد مرتين "يا عم درويش صالح، يا عم درويش صالح".. لم تبدر منه حركة. استبد بك الهلع، خرجت من حجرته مسرعة، وانتصبت قبالة والدك كرمح موَتّد.. أنبأته بأنه لا يند منه نأمة صوت وانه متخشب. على الفورة هرع والدك الى غرفته، وقف فوق رأسه مذهولا. هزّه عدة مرات مرداً درويش صالح، درويش صالح". بعدما اذاع والدك الخبر بين ساكني الدار، من ثم هرع أهل الحارة الى معاونتكم فواروه الثرى في الليل.. وقال والدك:

– اي والله، كان من الأولياء الصالحين. كان رجلا تقيا، فقد مات دون صخب ولا مرض.. الحق يقال انه كان من رجال الرب اذا مات الانسان فعليه ان يموت هكذا..

– الى ان تزوجت ظلت غرفة درويش صالح فارغة وعلى حالها..

***

١٣

في صبيحة أحد أيام أواخر شتاء عام ١٩٦٠ كنت طالبة في الخامس الابتدائي. وكنتم في الحصة الثانية، تناهى الى سمعكم صوت اطلاق ناري من بعيد، وقد ازداد صوت زخات الرصاص بعد ذلك، بهت لون معلمتكم، وهرعت الى الباب لتصيغ السمع وللتتأكد مما حدث. عندما وصلت الى الباب رأت المعلمات مجتمعات في باحة المدرسة مضطربات. والطالبات هرعن بالخروج من الصفوف. بدأ الزعيق والصراخ. المعلمة "پروين" كانت فتاة شجاعة ومثقفة. كانت تلقنكن الأناشيد "يارب صن الوطن"، و"اليوم نوروز عام جديد" و"أيها الرقيب".. كانت تقول بصوت عال:

– يابنات لاتخفن، لاشيء، لا تضطربن، يقال ان طلاب مدرسة الشورجة للبنين وأهالي الحي قد أحتشدوا لقطع الطريق على سيارات الحكومة، وقد وثبوا ضد النظام..

رغم أن هذه الأحاديث كانت ذات مغزى قليل لديكن، وتصيبكن بالهلع، لكن عندما سمعت كلمة "طلاب الشورجة للبنين" خفق قلبك وغرق جسدك في عرق بارد. انطلقت دون تردد خارجة من مدخل المدرسة وعدوتِ صوب مدرسة البنين، كانت تبعد عن مدرستك ما يربو على الخمسمائة متر.. لكن ماذا رأيت؟ حشد هائل من الناس في هرج ومرج، متجمهرين ويلوحون بالأيدي هاتفين:

– ليسقط نظام الجلادين.. يا..

– يسقط..

– يسقط عبدالكريم قاسم، يا !!!!!!!!!..

– يسقط ط ط ط..

– لتسقط أذنابه.. يا..

– يعيش كورد وكوردستان، يا !!!!!!!!!!..

– يعيش...

كان "خليل المجنون" واقفا بعيدا عن الحشد بضع خطوات، كان يلوح بيديه ويصرخ كثغاء عجل مصاب بمرض الخناق وصوته يصدح:

– هيا يا أولاد لا تعطوا خبز الحنطة للحثالات، لا تعطوا خبز الحنطة للحثالات.. هيا.. أمسكوه، هيا لا تعطوا رغيف الحنطة للحثالات..

وقفتِ بجانبه بوقار، استفسرتِ منه خائفة بعض الشيء:

– يا عم خليل، يا ترى ماذا حدث..؟

وهو بدوره رمقكِ بنظرة شزراء وقال:

– أيتها الكلبة، يا من براء منها أمة محمد، انظري ها هو..

كرة أخرى ارتفع صوت ثغاء العجل:

– هيا، امسكوه، لا تعطوا رغيف الحنطة للحثالة..

كان "خليل المجنون" نازحا من قرية نائية من قرى "گەرميان"، كان طاعنا في السن، جاف العود، طويل القامة. رغم هذا كان قويا، نشطا، كان يمشط المدينة ذهابا وايابا من اقصاها الى اقصاها منذ الصباح الباكر، الى ليل متأخر عشرات المرات. جاعلا من سرواله صرة لملابسه، كان يعقده من طرفيه ويعلقه على محجنه، ويتنكبها على كتفيه ويتدلى من الخلف.اذا استفسر أحد منه عما هو في داخل هذه الصرة، يثب فجأة

منفلتا منه يقول:

– يا هذا لا تعطوا رغيف الحنطة للحثالات.. ان بداخلها ثروة "خسرو شاه".

كان يردد هذه المعزوفة على مدار اليوم، وعندما كانوا يثيرون حنقه:

– لا تعطوا رغيف الحنطة للحثالات، لا تعطوا رغيف الحنطة للحثالات..

***

هرعتِ وقد بهت لونكِ متسللة بين ثنايا الحشد بمشقة، فتشتِ عن "قارەمان" بعيون متلهفة الى أن دبّ فيك اليأس، خارت قواكِ.. على حين غرة لاح من بعيد رجال يلبسون بدلات خاكية وينثرون الشتائم من فوق سيارة مدرعة، ويصولون على الحشد بالهراوات، في حين كان الحشد لا يتوانى عن اطلاق الهتافات ورجم ذوي الملابس الخاكية بالحجارة، ولا يدعونهم يتقدمون خطوة واحدة. بغتة لمحت مجموعة اخرى وقد هرعت لمساندتهم. كان "حسيب رافزي" يعتلي احدى السيارات المسلحة وعنما وصلوا الى المكان، امطروا الحشد بوابل من الرصاص. لقيا رجل هرم وامرأة مصرعهما، واصيب البعض الآخر بجروح، تفرق الحشد اثر هذا التصرف البربري وتحلقوا حول الجثتين والجرحى، وانقذوهم، فانتهز الجند الفرصة وانهالوا على الجمهور المحتشد بالضرب، ومن كان يقع في متناول أيديهم يقبضون عليه، الى ان ازدحمت السيارات المسلحة. والذين أفلتوا من قبضتهم حملوا جثث القتلى على اكتافهم في مسيرة، كانوا ينشدون ويهتفون، وفي الظهيرة واروا القتلى التراب وأدخلوا الجرحى الى المستشفيات، وقد أدت هذه الكارثة الى تأجيج المدينة، وأثارت اندلاع الاحتجاج والمظاهرات والاضراب في كافة المدارس. وقد

أخمدت هذه الانتفاضة بالحديد والنار. من ثم داهموا القوى الوطنية في المدينة وزج بأكثر أعضائها في السجون والمعتقلات.. وقد القي القبض على (قارەمان) في حوادث مدرسة الشورجة في ذلك اليوم، و اعتقل في مركز شرطة بيريادي بضعة أيام مع بعض من زملائه، ثم اخلوا سبيله بعد ذلك. في تلك السنة عاد قارەمان الى قريته في العطلة الربيعية. وكل عام قبل انتهاء العطلة الربيعية كان يعود للمدينة بيومين. لكن تلك السنة لم يظهر له أثر الى ان فتحت المدرسة أبوابها. قلقتِ عليه، وكان ذلك يقض مضجعكِ، ماذا حدث لهم؟ أمن المعقول لم يدعه والده أن يستمر في دراسته خشية مما حدث في المدرسة واعتقاله؟ دارت في خلدك تهيؤات شتى. الى ان استفسرت من "نازدار" في طريق المدرسة:

– يا "نازدار" لماذا لم يعد قارەمان لحد الآن رغم افتتاح المدارس؟ هل حدث له مكروه؟..

شدتك نازدار من شعركِ مازحة وهزتكِ:

– يا آنسة، يبدو أن نار العشق قد تأججت في جسدك وأقضت مضجعك.. يا فاجرة لم يحن بعد الوقت كي نقتفي أثر الرجال.. كلا.. لا تخافي لم يحدث لهم أي مكروه.. لكن..!

رغم أن "نازدار" كانت صائبة في قولها، وان الوقت لم يحن بعد ليقتفين أثر الذكور، ولربما حان الوقت بعد سنة من الزمان، لكن ما كان يدور بينك وبين قاره مان، كان أشبه بحقل حنطة يستعر تحته لهيب الجحيم، فأدى الى نضوجها قبل أوانها. وقد نضج هذا الاحساس عندكما.. حين قالت نازدار "لكن". اعتراك الخوف، وتحققت منها اكثر وسألتها متلهفة:

– لكن، ماذا؟

– لكن، أخبرنا بأن قاره مان يعاني من المرض وهو راقد في الفراش.. تداعت السماء فوق رأسك وكان قلبك يقفز في قفص صدركِ، أشبه بقشة في وسط الدوامة، فكاد ان يسقط في احشائك كتفاحة ذابلة.. سهت عن نازدار، أغرورقت عيناك بالدموع، أخفيتيها عن نازدار، قلت لها بلكنة حزينة:

– إذن، ليس بمقدوره أن يستمر في الدراسة..؟

هزت منكبيها وأردفت قائلة:

– لا أدري..!

اختلجت دخيلتك بالبكاء اكثر بسماع كلمة (لا ادري)، ثم اسرعتما الخطى صوب المدرسة وقالت نازدار:

– أسرعي ايتها العاشقة، فقد تأخرنا عن موعد قرع الجرس خمس دقائق.. فقد وصلتما الى المدرسة عدوا وقلقا، كانت مديرة المدرسة واقفة امام المدخل وفي يدها خيزرانة وقالت غاضبة:

– يا بنات لم تأخرتما؟ هيا ادخلا الصف وإلا سوف أقرر بفلقتكما..

لقد خيل أليك وانت تسمعين كلام المديرة وكأنك في حلم وقد تراءى لك مثل السراب ولم تعرفي كيف جلستِ على الرحلة. وكنت في الحصة ساهية عن الدنيا ايضا. ولم تبوحِ لـ"نازدار" سواء في البيت او في المدسة، بأن بحرا هائجا يتلاطم في داخلك ويصخب، وفي البيت ايضا كنت تقبعين في مكان منزو، بعيدة عن أنظار أمكِ. كنت تهدئين من روعكِ بنشيج حرى..

***

بعد اسبوع، وفي احد الأيام نادت عليكِ "نازدار" من فوق سطح الدار:

– هه تاو.. هه تاو.. اصعدي الى السطح..

– اعترتكِ رعشة، أشبه بوخز الابرة تلسع قلبك. تعثرت خطواتكِ من جراء الهلع. وصلت اليها مسرعة فقالت:

– بشراكِ..

قالت ذلك وكانت تهز رأسها بروح مرحة وقلتِ ذاهلة:

– أية بشرى.. ؟

– قارهمان..!

–...!

– لقد جاء قارهمان وعمي قبل هنيهة، أنهما في البيت الآن.. لكن قارهمان ليس على مايرام، فهو شاحب الوجه. يقول عمي بأنه جاء به الى الطبيب ليعرف ماذا ألمّ به..

– رغم ان داخلكِ كان يرغي ويزبد، كدت ان تجهشي في النحيب. لكن شددت على نواجذكِ، كأنما الأمر لا يهمكِ ولا تكترثين له.. ليلتها لم تغمض لكِ الجفون الى الهزيع الأخير لأجله. كنتِ مسرورة لذلك بأنه سوف يأتي غدا الى المدرسة فتلقينه. غفوتِ على هذا التمني، واستيقظتِ مبكرا على هذا التمني، شرعت في تهيئة الفطور لوالديكِ، ثم فرغتِ من ذلك بكل برود، صرتِ تمثالا منسيا أمام المرآة القديمة الصدئة، ترين صورتك فيها بصعوبة، قمتِ بتغير ثيابكِ بقلب مراهق، وكنت تغنين اغنية آسرة في قرارة نفسكِ. تلك الأغنية التي يغنيها كل امرئ ممسوس لتهدئة روعه، وتستحيل ترياقا بعض الوقت ويركن على أثرها الى الهدوء. لكن في ذلك الصباح الاسطوري، كانت "نازدار" تتجه صوب المدرسة، التصقت بها، ولم تنبسي ببنت شفة طيلة مسافة الطريق. اردتِ ان تبادري نازدار الكلام، وبدورها لم تنبس ببنت شفة، كانت تلتفت حواليها يمينا ويسارا، لذا عيل صبركِ وبادرتها متسائلة:

– ماذا عن قارهمان، يبدو أنه لن يأتي..؟

حرت في الجواب بابتسامة مغناجة:

– ايتها العاشقة لِمَ لم تتكلمي منذ البداية؟ لن يأتي قاره مان للمدرسة، لأن عمي سوف يأخذه الى الطبيب لمعرفة دائه..

سمعت هذا القدر من حديث نازدار. ثم اصابت أذانك الصمم، كمن يلقون به في هوة سحيقة. ويفقد النطق، سلكت درب المدرسة مرغمة. غائبة عن الوعي، لم تزل ثمة بسمة عقيمة، كانت تشرئب من داخلكِ، على الاقل سوف ترينه عند العودة من المدرسة. يومها عندما عدتِ من المدرسة، صعدت بعد الغداء الى سطح الدار مضطربة، قلقة، من هناك ناديت على نازدار، لكن أمها لبت نداءكِ:

– يا خالة، اردت نازدار، فإذا امكن ان تناديها..

وهي بدورها دون ان تتفوه بشيء، نادت على نازدار:

– نازدار، يا نازدار، يا بنيتي، تريدكِ "هه تاو"..

صعدت الى السطح وهي ضاحكة، ضغطت على أنفك بين اصبعيها السبابة والابهام وقالت:

– يا ملعونة، ادري، ادري، كنت اتناول الطعام ولم اكمله.

قلت لأخبرها بنبأ الفتى الشهم..!

قلتِ بخجل مطاطئة الرأس:

– لا والله، أردتكِ لشيء آخر..

كانت تكن لكِ الود، تعرف بأن ولعا شبه محظور ازاء ابن عمه يختلج في دخيلتكِ، لذا قالت بيأس:

– تقول أمي بأنهم أخذوه الى الطبيب، أوصى الأطباء بدخوله

للمستشفى، لكن عمي أبى ذلك ورفض، وكتبوا له العلاج، ان عمي رجل قروي وعنيد رجع به الى القرية..

قلت خائفة ذاهلة:

– كيف يحدث هذا؟ يبدو ان مرضه بحاجة الى ذلك؟

– من المحتمل، لكن ماذا تفعل مع شخص قروي وعنيد مثل عمي؟

– وماذا عن دراسته؟

هزت منكبيها وقالت ببرود:

– ربما لا يريده ان يستمر في الدراسة؟

كنتِ ساهية، لذا أجبتها حانقة:

– لِمَ يهدر مستقبله..؟

لم تكترث لحنقكِ وقالت بابتسامة شبه بورجوازية:

– يا فتاتي الطيبة قلنا أنكِ متولهة به، لكن ليس على هذه الشاكلة. ماذا تفعل مع هؤلاء من المتخلفين من ذوي الادمغة الفارغة..

ثم قالت نازدار بدلع:

– قولي، ماذا تريدين مني ان أعمله لكِ؟ دعيني أذهب لأكمل تناول طعامي..

قلتِ بخجل مزيف:

– كلا أردت ان استعير منك كتاب التاريخ.. عندما تنتهين من تناول الطعام.. لا.. لا.. سوف آتي في وقت آخر لآخذه بنفسي..

صفعت نازدار وجنتكِ بأناملها الرقيقة ثم انطلقت..

في تلك السنة وعندما انتهى العام الدراسي، وتسرح التلاميذ الى الأزقة لقضاء عدة أشهر في شتى الأعمال والألاعيب. لم يظهر اي أثر لـ

"قارهمان" في المدرسة. كنت تسمعين من "نازدار" أحياناً، بأنه لم يتماثل الى الشفاء بعد. وفي بداية العام الدراسي الجديد كنتِ في الصف السادس الابتدائي، رغم أن "قارهمان" كان من أوائل صفه كل عام، لكن تلك السنة رسب في الصف الخامس، كان يأتي للمدرسة قليلا. كي لا يفصل من الدراسة، لأنه كان واثقا من النجاح، أم خوفا من عودة مرضه، فكان يعود الى قريته كل يوم أربعاء في الاسبوع، ثم يعود صباح كل يوم سبت. في العام الذي كنت فيه في المتوسطة، كان "قارهمان" عائدا الى قريته في العطلة الربيعية، وقد انقضى اسبوع ولم يعد. عندما استفسرت عن سبب تأخره من "نازدار" قالت وقد بدا على محياها حزن زائف:

–فقد توفي عمي..

سألتِ بحيرة:

– ولِمَ لم يذهب احد منكم لحضور مراسيم العزاء..؟

أجابت بدورها ببرود:

– والداي يقولان أن الطريق محفوفة بالمخاوف والمخاطر، الدنيا مطر وثلج، لاتصلها السيارات، يقول أبي عندما يهدأ حال الدنيا سوف أزورهم..

بعد عدة أيام اتضح لكِ بأن "قارهمان" عاد الى المدرسة، وقبل في القسم الداخلي..

***

١٤

"شاناز" قابعة ابدا في تلك الغرفة. تتبعكِ نظراتها المليئة بالحقد والكراهية، انها منذ مدة تهزل يوما بعد يوم، عرضتيها مرات عديدة على الاطباء. وهم لا يصارحونكِ بشيء. عدا انهم يكتبون لها الادوية بأثمان باهضة تتراوح ما بين ثمانية او تسعة دنانير. تأبى تعاطيها البتة. يزداد وجهها شحوبا. فقدت النطق. تتكلم بالاشارات وتحدقك بنظرات شزراء، يبدو ان افعالكِ تلك قد انحسرت في داخلها، كانت تنخرها كالارضة والسوس. وتمتص دمها قطرة فقطرة. كانت فتاة ناضجة من حيث الجسد. كانت تجلب انتباه ونزوات الذين كانوا يرتادون هاتين الغرفتين. عندما كان يلاحظها احدهم، ينقض عليها، كانوا يريدون ان يروضوها هي الاخرى. وانت كلبوةٍ تدافع عن شبلها تهاجمينهم وتشدين من خناقهم، وتدمي وجهه بمخالبكِ وتقولين:

– كل شيء ما عدا هذا، فقد دفنت شبابي من أجلها، والآن لا اريد أن تحذو حذوي هي ايضا.. اتوسل اليك ألا تقترب منها، وإلا مزقتك اربا، سوف أرمي لحمك للكلاب..

صارت تلك الفتاة المشلولة المسكينة عاهتكِ المستديمة، هي والشقاء قد مهدا الطريق لإنحرافكِ، ما باليد حيلة، فالراتب التقاعدية كان يكفي لتسديد ايجار البيت فقط. لولاها لعثرتِ على الزوج وسترت شرفكِ، ولم تكوني الآن دون سند بهذه الشاكلة، وتضيق بكِ الدنيا، ام كنت تعملين كبقية النسوة ولم تكوني تتورطين بهذه الصورة. لكن اذا ذهبت للعمل

فمن كان يهتم بتلك الغولة المتلقية، كي يقوم بإطعامها وتنظيف تغوطها؟ لم يكن يسمح لكِ قلبكِ، وليس لديكِ أهل وأقارب، لتدعيها في عهدتهم.. فقد غرروا بكِ دون ان تدري وتلوثت سمعتكِ، في البداية طمح فيكِ "حويز". جاء لزيارتكِ مرة او مرتين مثقلا بالهدايا.. عدة امتار من الاقمشة لكِ ولـ "شاناز" مع بعض الكماليات الأخرى..

– لكن.. يا استاذ "حويز" لِمَ تتعب نفسك معنا ولا يحتاج الأمر الى هذا..؟

– من أجل عينيك و شاناز يرخص كل شيء ودون ثمن..

قال لكِ ذات مرة دون تردد وخجل :

– ياسيدة "هەتاو" حقا اريدكما ان ترضيا عنى انتِ و"شاناز" ان تقبلاني وليّ امركما..؟!

– عفوا يا أستاذ، لا أفهم قصدك جيدا؟

– أريد أن اكون أبا لـ "شاناز"..

لم تنبسي ببنت شفة، ان السكوت دليل الرضى..

صارت زيارات "حويز" يومية من دون انقطاع، استطاع ان يطمئنك ويضرب ضربته، بالاضافة الى ذلك كان يغويك، بأن الموضوع سوف لا يتعدى اكثر من شهر ويأخذكما معه، ويكون زوجا لكِ وأبا لـ(شاناز). فلم ينكث بوعده فحسب وأنما عثر لكِ على الزبائن.. إلا أن ذاع سوء صيتك وطردوكِ بإقرار جماعي من دار "الحاج مصطفى" ورموا اسمالكِ على قارعة الطريق. لذا قررت ان لا تمكثي. أردتِ ان تمحي كافة ذكرياتكِ الحلوة والمرة. كأنك كنت تريدين الفرار من تلك الذكريات. اذ كل الأزقة والدروب والشارع كانت تذكركِ بعشرات التعاسة وأيام عصيبة، وفتحت هذه المدينة ذراعيها لك. ها هوذا "قاره مان" بلحمه ودمه

شاخصا أمامكِ بعد غياب دام سبعة عشر عاما. وتيقنت من نظراته بأنه لم يزل تواقا ومتولها بك كسابق عهده. وينبض قلبه بشوق تلك الأيام التي خلت، ويزلزل جل كيانه وتجسد في بريق عينيه الحانيتين. كنت تقولين في قرارة نفسكِ لا داعي ان يعرفني بعد ذلك.. لست الآن بـ "هه تاو" أيام زمان. خجولة، طاهرة. يومئذ كان هو الذكر الوحيد كنت اشعر تجاهه برائحة الذكر وانوثتي، واصيغ السمع الى أحاديثه الشبقة. هل ثمة ذكر آخر كان في مقدوره أن يمسني بسوء؟ كنت أشرع في إهانته، وأتغوط على لحية أبيه مئات المرات. وأوصمه بالقواد وعديم الشرف".. هو الآن ايضا يحمل على عاتقه حملا ثقيلا من المعاناة والتشرد والشقاء. فقدت وجنتاه، المكتنزتان رواءهما، كأنهما لحاء شجرة بلوط مجمدة متيبسة، خط فيهما محراث المحن خطوطا متعرجة، عيناه متورّمتان، استحال بياضهما الى جمرة موقد صبيحة شتائية. فقد استطالت لحيته نحو شبر ويغطي شاربه شفتيه. لا يكترث لنفسه كالسابق، وفقد اناقته المعهودة، انه رث الثياب. اذ لم يعرفه احد ويشك فيه بأنه احد الفارين من مصحة المجاذيب.. قبل ان يكمل "قاره مان" دراسته وان يتوارى عن انظاركِ، التقيت به ذات مرة وبدأتما التسكع في أزقة المدينة فبادركِ قائلا:

– ماذا بكِ يا منى الفؤاد؟ اراكِ حزينة اليوم، وشحب لونكِ بعض الشيء، ماذا حدث؟ قولي وإلا فسوف أجن..؟

رمقتيه بنظرة رغبت ان يقف الزمن في تلك اللحظة الى الابد، ويوتد بوتد هائل كي يكف عن دورانه..

قلتِ له بحزن هادئ:

– لا أدري، ولماذا أتذكر هذه الأيام ما حدث لـ"شيرين وفرهاد" دائما.

عندما كنا نتبادل فيما بيننا كتاب اسطورتهما. كنا نلتهم كلماته بلهفة، وكأن قلبي قد تنبأ بأن شيئا سوف يحدث لنا..

– لِمَ؟ وهل حدث شيء ما؟

كانت عيناه الكليلتان لا تفارقان وجهكِ وقلتِ:

– لقد علمت أمي ما يدور بيننا، وفي اكثر الأحيان تسمعني هذا الكلام المفجع "لو كان ولدا صالحا لما طرده عمه"..

إذّاك يتملكني الحقد عليها من الاعماق واريد ان اقتلع لها رأسها..

– لكنكِ تدركين جيدا انا الذي تركت بيت عمي ودخلت القسم الداخلي، لأنهم لا ينسجمون مع أحاسيسي وتطلعاتي..

– اعرف ذلك جيدا. لكن ماذا تصنع مع تلك الشمطاء، ما باليد حيلة..؟

وهو بدوره لم يعثر عليك ثانية عن طريق الصدفة، بل في أحد الأيام كان جالسا في أحد المقاهي التي قبالة القلعة، مع "جمال" ابن خالة فاطمة حيث قال له:

– انك منذ مدة في هذه المدينة، يقولون بأن "هه تاو" جارتنا القديمة هنا..

فقال له وهو حائر:

– أية جارة تقصد، وأية "هه تاو"؟

قهقه جمال وصفع فخذه وقال:

– يا لعين ألا تعرف أية "هه تاو"؟ هه تاو محمد أمين..

وحول نظره الى الحشد المضطرب في الخارج بعين حزينة وتائهة، وقال:

– كان ماضيا وقد ولى.. الآن هي في بيت الزوجية، يا منحوس أنهن حبيباتنا وزوجات للغير..

امتص جمال من سيجارته ونفث دخانه في ملامح "قاره مان"، ولم يتكدر لذلك، كان غارقا في أوهامه حيث قال:

– والحق يقال انها أيضا امرأة تعيسة..

– ولِمَ امرأة تعيسة؟ وهل تعاستها توازي تعاستنا وتشردنا؟ وماذا ينقصها؟..

– أخطأت الهدف يا سيد.. يبدو أنك نائم ورجلاك في الشمس؟ ألا تدري بأن زوجها لم يبق منه حتى رفاته منذ سنين خلت؟ وتعيش الآن مع فتاة مشلولة، تجرجر خلفها حياة قاسية وذات سمعة سيئة، والزمن بدوره يجرجرها..؟

– هذا الصباح– لم تدركي أكان محض صدفة، أم كانت تخطيطا من "قارەمان" منذ سنين، لذا التقيته، لقاءا شبه خرافي، اضطربت اعماقكِ كبحر متلاطم اثر عاصفة هوجاء فأخذت تزمجر. لقد كان مجيئه على أمل ان تجددا العهد وتتفقا على لمّ الشمل، ويجعلكِ أنيسته كي يبث لك همومهُ ولواعجه التي لم يسمع بها كائن ما، أمام موقد شتائي دافئ، ويملي عليكِ كافة ما قاساه مع ذرف الدموع الحارّة والحانية، وتلك الحسرات الباردة التي تراكمت بين ثنايا شعيرات نافوخه ودخيلته مثل جليد المشتى، وليس بمقدور أي حضن دافئ ازابته. بينتِ له بأنكِ لا تعرفينه، فقد تداعت الدنيا فوق رأسكِ اثر هذا التصرف، قلتِ في قرارة نفسكِ يجب الا يتعرف عليكِ، اذ الظروف اصبحت حائلة دون ذلك، ورفع جدارا سحريا سميكا من الأخلاق فيما بينكما، ذلك الجدار الذي شيّد من طين زمن جاحد ولبنه، ولا يد لك فيه، أردتِ أن لا تقاوميه هذه المرة

أيضا، وتدعينه ليذهب الى حال سبيله، ولا تأسرينه في حبائلكِ. ربما أنه لم يزل رجلا قرويا ذا شكيمة. وأشفقتِ عليه ان لا تقذفيه كرة أخرى بين ثنايا جحيم حالة أخرى، سبعة عشر عاما ليس من السهل نسيانها، فقد وخط الشيب فوديه، واستحال رأسه الى مشتى ثلجي أبلق. ليس بوسع أية عقاقير ان تزيل ذلك الثلج. ماذا فعل طوال هذه المدة، سبعة عشر عاما؟ لاتعرف عنه شيئا لحد الآن، يعوزه وقت فراغ طويل كي يقص لكِ خلاله ما حدث له طول هذه المدة، وهو بدوره لا يعرف عنكِ شيئا. اذا ما سنحت لكِ الفرصة من أين سوف تبدأين؟ وأية تعاسة وشقاء تبثيها له؟.

ولج الى غرفتك هذا الصباح لفترة وجيزة، ثم انطلق مضطربا، كنت ترمقينه خيفة، كان قلقا، مضطربا، ويندلق بين الفينة والفينة فرح في داخله، ويرتسم على شفتيه المقدودتين على شكل بسمة باهتة:

– حقا أنك "هەتاو" وقد فعلت المأساة معكِ فعلها.. حاولتِ متعمدة أن تعامليه كالآخرين.. لكنه لم يكن يفسح لكِ المجال، ويحدق في عينيكِ المغرورقتين بالدموع ويقول مضطربا:

– أنتِ "هەتاو" هه تاو عم محمد أمين الحوذي، في حارة "بيريادي" في كركوك؟!. أنا "قارەمان" الذي أفديته بعمركِ..

كان صادقا في ذلك، وقد جعلتِ من عمركِ قلادة الانتظار لتزيني بها جيده حينذاك، لكن أشحتِ بوجهكِ عنه، عيناكِ استحالتا وردتين داميتين. رمقتهِ بنظرة غضب عارم مزيف، زعقتِ في وجهه. لم تدر كيف انبثق هذا الزعيق في وجه "قاره مان"، فقد انهالت عليكِ الدنيا ندما بأسرها. هدأت من روعكِ قليلا، وقلتِ له شبه متضرعة:

– عن من تتكلم؟ يا أخ أنا لست هي، ومن هي "هه تاو"؟

لقد أخطأت العنوان. ربما أنا شبيهة بتلك المرأة التي تبحث عنها؟

مرتين او ثلاث ضغط على ساعدكِ وأدار وجهكِ نحوه، كان مصرا على أنكِ "هه تاو" وهل كان على خطأ؟! اذا كانت تلك السنين الطويلة والمَاسي قد أنسته كل شيء، فإنه ليس من المعقول ان تنسيه خلجات نفسه وتلك الشامة السوداء على خدكِ الأيسر الذي قبلها مرات عديدة في حينه، وقضمها بأسنانه قضمة الاشتهاء..

***

كان خنوع أمكِ وعجزها في حياتها، جعلاها تعنفكِ دائما. كانت تريد أن تغرر بكِ. لذا كانت تقول:

– يا بنيتي العزيزة، انكِ و"سَردار كاكه فتاح" ترعرعتما سوية منذ نعومة أظفاركما، وتعرفان بعضكما جيدا، لقد مضت سنين طويلة ونحن نعيش في هذه الدار، ولم يبدر منهم ما يعيب، وأبواكما مثل الاخوين. ألعني الشيطان وتزوجيه ولا تركبي رأسكِ. ان أمه تكاد أن تجن لأجلكِ، وتتمنى ان تكوني عروسا لولدها. تقول أيأتي ذلك اليوم الذي ترضى بنا "هه تاو"؟ والله لا أدعها تقوم بأي عمل، لتأكل وتهنأ.. إنها ايضا مثل خالتك.. رغم ان مستوى سردار الدراسي لا بأس به، لكنه والحمد لله يحصل يوميا على مالٍ وفير..

ان كلام والدتكِ هذا كان يدخل في نفسكِ يأسا قاتلا، كنت تقبعين في مكان منزوٍ وتندبين حظكِ المنكود..

– يا بنيتي العزيزة، اسمعي كلام امكِ ولا يركب رأسكِ العناد.. لم يبق من والدكِ سوى حفنة، وليس مقدوره ايفاء مصاريف دراستكِ.. ان الفتاة مهما ظلت وحتى اذا اصبحت وزيرة فلابد ان تتزوج..

لِمَ يحرم العوز والفاقة الانسان حتى من أبسط حقوقه؟ كي يكون حرا في اختيار الموت والألم والجوع والمرض والمطاردة و الاعتقال

والاضطهاد..؟

ولكن كنت تشاهدين "نازدار" يوميا. وهي تتأبط ذراع "هه‌لگورد" ويخرجان على مرأى ومسمع أهل الحارة، كان هذا بالنسبة إليك محالا. لأنها بنت شخص موسر صاحب جاه ومال. وكان والدكِ يقول في أغلب الأحيان:

– يا بنيتي ان المال يغطي حتى على السرقة والزنا، عودي الى رشدكِ واذهبي الى مدرستكِ، وارجعي الى البيت على صراط مستقيم، فلا تذهبي الى هنا وهناك. نحن ناس فقراء لانتحمل قيل وقال الآخرين..

والآن تريدين أن يعود العمر على أعقابه، كعربة على المنحدر، عندها تعرفين ماذا تضعين وتخططين لنفسكِ من حياة منظمة.. لكن.. هيهات.. إن عمر المرء ليس بالشجرة تتجددُ في كل فصل ربيع وتورق براعم جديدة وتجدد عنفوانها...!.

كانوا يلفقون حولكِ عشرات الاشاعات والقيل والقال. كانت تأتي الى أمكِ كل يوم عجوز شمطاء، قاتلة فرهاد، تُسمعها:

– إن ابنتكِ قد انحرفت عن الطريق، واسمع حولها الكثير، يقولون انها عاشقة، وتطارح الرجال الغرام، وقد رأوها عدة مرات هنا وهناك بصحبة شاب..

بعد ذلك أغلظ والدكِ اليمين، ففطموك عن الدراسة، واخرجكِ عنوة. عندئذ انقطعت أنباء "قارمان" ايضا.

ذات مرة قالت لكِ "نازدار".

– يا نحسة يقال انه دخل الكلية واصبح ذا شأن أنه نسبكِ. أنا اعرف هذه الحثالة من الناس جيدا، عندما يشبون عن الطوق فإنهم يدوسون على كافة القيم والمثل..

لم تكوني تحبذين ان تطن آذانكِ بهذا القول وتضيق بك الدنيا. ألححت على "قاره مان" اكثر من مرة ان تهربا وتخالفا كافة العادات والتقاليد، لكنه كان ينهركِ ويقول:

– ماذا تقولين، أنتِ مجنونة؟ كيف تخطر ببالك هذا؟ إن ما في مقدورنا سوف ننجزه، وإلا فالمسألة هي ان نخضع للأمر الواقع. يد واحدة لا تصفق، ولا الطير يستطيع ان يحلق بجناح واحد. ان الواقع اذا أردنا فإنه بحاجة الى التغيير، يجب ألا يبقى على حاله بل أن يقتلع عن الجذور كشجرة بائرة.. الآن تدركين كم كان قول "قارهمان" مقبولا وفي محله. ان من هو ذا حمية مثلكما لا يستطيع ان ينجز أيما شيء في مجتمع الذئاب. مجتمع يقلب كل شيء رأسا على عقب بإسم الشرف ويد الرجعية السوداء وايمان أعمى، ويبرر آلاف الخطايا وجرائم القتل والسرقة وهتك الأعراض، وينجزونها بأيد متوضئة، ويمنحونها أغلب الاحيان القدسية.. عرفتِ بعد ذلك أية مؤامرة دبرها والداكِ مع بيت "فتاح هموند". قذفوا بقدركِ في جحيم أسود وابتهجوا كثيرا لهذا القرار، واحتفلوا بهذه المناسبة سرا،واقتلعوا امنياتكِ عن جذورها، وأذلوكِ.. ان أبشع حالات المرء هي ان تفنى آماله، ربما قد يؤدي به الى ان يكون سارقا أو قاطع طريق، او قاتلا، او دكتاتورا، أو أن يسلك أشنع المسالك..

أصبحت شريكة حياته عنوة، حياة قاسية، صرتِ كمثل الدية عن ثأر الدم، كنتِ تفكرين في الفتيات اللائي اصبحن بدائل ثأر الدم، وقمن بتدفئة احضان رجال هرمين.. انهم يبغون ان يصححوا الخطأ بالخطأ. ان مجتمعكِ هو مجتمع تصحيح فضاعات الدنيا ويشبعكِ ضربا مبرحا ويقول لكِ:

– كنت أدري بأنكِ ذات ماض بغيض، كنت أراكِ يوميا مع الاستاذ "قارهمان" تتأطبان ذراع بعضكما البعض؟ والعلم عند الله كم من الشبان جربتهم، لكن أمي اللعينة وأمكِ.. غرّرتا بي.. يا من قبلوكِ خلف عشرات الأبواب، وقد أفرغوكِ واصبحتِ من نصيبي..

كنتِ بدوركِ تجهشين بالبكاء والعويل، تركتِ بيت الزوجية عدة مرات، لكن كانا يقومان بتهدأتكِ:

– يا بنيتي الرجل هو الرجل، عندما تتزوج الفتاة سوف ترى الحلو والمرّ..

ان جل احتجاجهما على وضعكِ هذا لم يكن يتجاوز اكثر من هذا. وكنت تسكتين على كل ذلك على مضض..

***

١٥

كان قد مضى على زواجكِ من "سردار فتاح همونـد" عام ونيف، وكان هو عاطلا عن العمل، كسولا، لم يكن قادرا على اكثر من هذا في حياته وواقع خصاله. كان يضيق عليكِ الخناق، ويقلب صفحات ماضيكِ، وفي النهاية أفلت منكِ وانطلق، وانخرط في صفوفهم. عشتِ مدة على معونات أبيكِ. عندما وافاه الأجل هو بدوره، لم يبق لكِ لا حول ولا قوة. أودعكِ في يد زمن قاس وملعون. بقيتِ وحيدة، واخيرا شددتِ رحالكِ مرغمة لتلتحقي بـ"زوجك". استقرت في قرية نائية. كنت تزجين أيامك مع لياليك في أحد الاكواخ على اغاثة القرويين. ولدت "شاناز" هناك. أمست ولادتها حملا ثقيلا فوق ثقل تعاستكِ. أدركتِ بعد سنة من الزمان انها ليست بطفلة طبيعية. ولم تكن تحرك رجليها كأي طفل آخر في المهد. ولم تكن تضحك، كانت حزينة، عابسة، جعلت من البكاء شغلها الشاغل. تزداد بدانة يوما بعد يوم. لكن رجليها لم تزيدا قيد أنملة. نصحتكِ كثير من العجائز. فأخذتها الى عشرات الأضرحة والمزارات دون جدوى. يبدو أنها كانت بذرة غير مخصبة لقدرين متناقضين لشدة ما مسدت رجليها بأحجار المراقد والمزارات. استحالت آثارها الى دمامل وجروح، ولم تكن تلتئم إلا بعد فترة غير قصيرة. اخذتها ثلاثة أيام متتالية الى مزار "خدر زنده" كنت ترمينها تحت شجرتها، جائعة، ظمأى، وتبتهلين اليه، انه فيما اذا لم يقدم على شفاء ابنتك فسوف تكفرين به الى الأبد. كثير من الدروايش والصعاليك والملالي من ذوي العمائم الخضر ممن

يعشقون النساء،كانوا يثبون على رجليها الغضتين بأرجلهم الضخمة، ويبصقون في حلقها، كان يعتقد بأن بصاقهم ولعابهم هي عقاقير فرنسية ومقدسة، أو انه دواء شاف. حتى ذلك الرجل الذي كان يتحزم بعدة امتار من القماش الأخضر، جاعلا بضعة أمتار منه عمامة، ولم يعرف احد من أين ومن أية بقعة انبثق، واصبح ملاكا لخداع القرويين في غمضة عين لدى اهل القرية التي استقريتِ فيها، وكان يدعي أنه من آل بيت الرسول ويغرّر بهم، كانوا يزعمون أنه يشفي مرض السل والسرطان ببعض الرقع والخرق الخضراء. ذات مرة قالت الخالة "خەوشە" لإمرأة أخرى:

– يقولون بالأمس شاهدوه بأم اعينهم وهو يحلق في السماء وكان يتحدث مع النجوم..

قالت الأخرى:

– لا فض فوكِ يا أختاه صدقتِ، من يجرؤ على الدنو منه فسوف تذهب الريح بشعر رأسه..

كانت الخالة "خه وشة" تقول:

– دعكِ من هذا، انه تقي ونوراني يشفي الانس والجان.. لقد جرّب ذلك التقي النوراني نفسه مع"شاناز" جاعلا منها مزارا من الأسمال والخرق. فقد صعد عدة مرات بأرجله الضخمة على رجليها الغضتين. لكن ذلك التقي النوراني غادر القرية بجيوب عامرة، ولم يبق له أثر. وقد قالوا بعد سنوات بأنه لقي مصرعه في إحدى القرى لقاء دجاجة مسروقة، قالوا ايضا بأنه كان ساحرا وجاسوسا.. يقال أنه في سالف الأعوام في قرية من قرى "گەرميان" قدِم رجل من منطقة المشتى مع حماره المحمل بالأعناب، ويصادف ان يموت حماره في طريق العودة

على مشارف قرية ما، ويظل الرجل دون حول ولا قوة، يحتار في أمره، تخطر بباله فكرة ويقوم بتنفيذ مكيدته، فيشرع بحفر قبر كبير لحماره، ويدفنه فيها ويباشر في البكاء والعويل عليه، عندئذ يجتمع حوله أهل القرية فيستفسرون منه قائلين:

– لمَ هذا البكاء والعويل يا رجل؟

فيجيبهم من خلال النشيج والبكاء:

– ويح نفسي لشيخي، يا ويلتاه.. كان وليا نورانيا، تقيا، كان يشفي الانس والجان، جئنا لزيارة هذه القرى ووافاه الأجل في الطريق وهذا مثواه، ويح نفسي لشيخي، يا ويلتاه..

وأهل القرية المساكين بدورهم يصدقون أقواله ويسألونه:

– حسنا، أي مرض كان يشفي شيخك هذا..؟

– العقم..أية إمرأة عاقر اذا زارت مزاره سوف تحبل في الحال..

فقد بدأت جموع من النساء العاقرات بالتوافد لزيارة ضريح الحمار يوميا من القرية. كن يمنحن الرجل مقابل الزيارة النقود او الحنطة أو البيض والدجاج.. الى ان وفر مالا كثيرا خلال أيام قلائل وهرب. بعد ذلك جاءت النساء من القرى المجاورة لزيارة ضريح الحمار كي يحبلن.. ووصلت الحالة بضريح الحمار الفاطس، درجة ان ترفرف عليه بعد اسابيع مئات من الشرائط الخضر والزرق والبيض مع رايات ملونة.. اذا شاهده رجل تقي من بعيد سوف يتملكه الهلع، وعندما يمر بقربه يشرع في قراءة سورة الفاتحة، ويقبل تلك الشرائط الملونة. لم يستغرق ذلك شهرا واحدا حيث استيقظ أهل القرية في صبيحة أحد الأيام من جراء نباح الكلاب، وقد اصابهم الذهول حين رأوا مجموعة من الكلاب وقد حلقت حول القبر وحفرته، اذ شمّت رائحة لحم الفطيسة، وقد هرع

نصف أهل القرية لطرد الكلاب من حوله. لكن المشهد أذهلهم، ماذا رأوا؟ لقد أخرجت الكلاب جثة الحمار من الحفرة غارزة اشداقها فيها، فشرعوا في الضحك وبعضهم عاد ميؤوسا، وكانوا يقصون الحادثة للنساء الأخريات..

***

حين التقيت "قاره مان" هذا الصباح هز كيانك، ذكّرك بتاريخ صعب وطاهر، انتصب أمامك اشبه بمرآة اتهامك. رأيت خللها عشرات من صورك البشعة، لمحت ملامحك، وجدت بأنك انسانة أخرى، استحال جسدك الى دمامل وجروح ينزف منها القيح والرذيلة، كأنك كائن خرافي مقزز، تملكك الرعب ازاء صورتك، وصار وجهك وجسدك مستعمرة للدمامل والعفونة يسيل منها الصديد، لذا تظاهرت امامه بأنك لا تعرفينه، لكن اصراره ألغى كافة النواميس، لم تصمدي، كنت تعرفين بأن سيرتك خيطت بألف خيط اسطوري، الشقاء والعوز هما من اكبر الكبائر. وليست جريمة القتل. تتحول عشرات الحقوق المشروعة للانسان الى الجريمة ولها عقابها في مجتمعك الذي يعالج الخطيئة بالخطيئة. ويزعمون بأن الفقر ليس بالجاني، لكن هو كبير الجناة، ويخفي تحت جنحه مئات جرائم السرقة والقتل والزنا.. قررت في قرارة نفسك أنه يجب ان تتشبثي هذه المرة ايضا بحبه، حتى لو متِّ جوعا. كي لا تتكرر تلك الفجيعة، ان للجسد حقا مقدسا على الانسان فلابد المحافظة عليه.. ان مثل هذه الخطيئة لا تغسل لدى الناس إلا بالنار، بيد أنهم يقترفون آلاف الجرائم المقرفة ويسترونها، من ثم يلبسون لبوس الملاك. تقررين بدورك ان تغسلي خطاياك بالدموع.. أية خطايا؟ خطيئة لم تقترفينها أنت، بل ألوف من الرجال البسلاء المزيفين والنورانيين والنصابين

المتوضئين ورجال السياسة المهربين كانوا سبب هذه الخطيئة. اذن لا تمثل كل دمعة متدفقة من عينيكِ معها غسل عشرات الذنوب؟ الآن دموعكِ، دموع نفس وضاءة وطاهرة. رغم تلوث جسدكِ، لم تزل دخيلتكِ وردة بيضاء ناصعة لربيع الجبال..

***

يبدو أن عيون قارهمان المليئة بالشقاء، كان يلعلع فيها بريق ذلك الحب، ان تلك السنوات الطوال قد غيرت كافة القيم. واي شيء لا يتعرض للتغيير؟ حتى ان كثيرا من الطيبين قد أمسوا محجنا في يد الشر، وغضوا الطرف عن كافة مبادئهم السالفة. يحتمل ان يكون هذا نتيجة نفض أيديهم من كل تغيير وليس في مقدورهم القيام بعمل ما. هناك من كانوا يسرقون حتى سجاجيد المساجد، غير أنهم اصبحوا في غمضة عين أشباه الانبياء وكانوا يدعون الناس الى طريق الخير، ربما كان ذلك نوعا من التجربة. فكرتِ في ذلك، ربما ثمة عشرات من النساء الشبقات جرّبن انفسهن معه، لِمَ لا، فإن الوحشة ليست بجنة الله كي تأخذ أمنياتنا المكبوتة بالأحضان. وانه نوع من اخماد لهيب الوحدة ولوعتها.. لم تكن هذه بالمرة الأولى التي رأيته هذه الصباح، بل أنه منذ شهرين يمر من هذا الزقاق. كنت تصادفينه في أغلب الأحيان، فتشفقين على حاله وتذرفين دموعا ساخنة لأجله. حاولتِ عدة مرّات أن تكشفي له عن نفسك. وكنت تفكرين وتقولين في قرارة نفسك ولكن بعد ماذا؟، بعد أن أمست انوثتك خرقة نجسة وقذفت في إحدى زوايا مدينة غريبة عنكِ..؟.

***

السماء تبكي، ومن ثم يتحول هذا البكاء الى قطرات مطر حانية.

وعيناكِ تراقبان رأس الزقاق، تيار هواء بارد يضايقكِ، عسى ولعل يعود "قاره مان" ويهرع لنجدتكِ عندئذ سوف تقصين عليه السيرة، دب الخدر في ركبتيك اثر جلوسكِ متقرفصة على عتبة الباب، عندما نهضتِ أحسستِ بالدوار سدّ غشاوة رؤيتك وأخذت باصرتاك بالتنمل. يئستِ، بارحتِ قبالة الباب بخفي حنين، ثم جلست بالقرب من زكيبة العظام (شاناز)..

***

الفصل الثالث

١٦

استحال الظلام خيمة سوداء كي تخنق الكون. صفحة السماء تعكس مشهدا تشاؤميا قاتما. تضيء المصابيح فوق الأعمدة. مساحات حواليها كأنها في قاع بحر نصف كدر. كانت ملايين البشر تجهش بالبكاء في السماء. ثم تنساب سيول دموعها نحو الارض. تنقر قطرات الدموع نقرات خرافية على الأبواب والصفائح المهملة في الأزقة والشوارع. وقد خيل اليك لحظتئذ بأن ثمة شاعرا واقفا في احدى زوايا الدنيا تحت المطر الهاطل. تتحول رجفة حزنه الى قصيدة عصماء. صوت النقرات الخرافية معا سمفونية اسطورية. ثمة حيوان خرافي ينفخ في المطر مسرعا. ثم يجرفه ويسوط به الأشجار والجدران المهترئة، لتعزف كورالا جنائزيا، عويل امرأة وحيدة وبكاءها كان يجفل له قلب تلك الليلة المروعة. ثم يختلط بالمطر المدرار. والمطر يهبط به نحو أعماق الأرض. هناك يختلط بهدير المجاري. فيسبب هلعا للحيوانات الصغيرة داخل المجاري. يختلط عويل المرأة بأنين وصريخ الحيوانات السائبة ثانية. ثم يستحيل في ثنايا عشرات المقابر الى أصداء، تتجه نحو الجبال والسهول، والمدينة متخفية خوفا من المطر تحت اعماق الأرض. زكيبة من العظام مرمية في إحدى زوايا غرفة حقيرة، وقد فارقت الحياة منذ ساعتين. والمرأة ترمق زكيبة العظام كبهيمة عاجزة بعينين خائفتين. مدية صدئة تقطع احشاءها إربا إرباً. تبتعد عنها على الفور مثل حيوان مرعوب، ان للموت سلطة مرعبة، تجعل من أعز الناس اليك سلطة خوف هائلة. تهرع تحت المطر وهي تولول، كقطة افتُرسَتْ صغارها. توجه فاها الى السماء في جهاتها

الأربع. وتعوي.. "الحاج حسوك" وزوجته العجوز ملتفان حول بعضهما من شدة البرد، دفء السرير يؤجج رغبة الحاج، لكن زوجته العجوز تردّه بالرفسات وتشرع في الغمغمة:

– ياحاج، يبدو ان فتاة "هەتاو" الكسيحة قد فارقت الحياة؟

– حتى الملائكة في هذا المطر قد خبأت نفسها ولا تتجرأ على الخروج. لا تخافي أنه الشتاء فلا تتعفن جثتها..

هذه الظهيرة، عندما عاد "قارەمان" الى غرفته الخرافية، كان هناك هرج ومرج في الخان، ورأى ما حدث بين "عثمان كەثوو" و"خاوەر". بعد ان خفّ الضجيج وساد الهدوء الخان بعض الشيء. وفي الصباح عندما التقى "هەتاو" للمرة الأولى.. كان جسمه متخدرا، خائر القوى. لذا القى بنفسه فوق السرير بكامل ثيابه، واستلقى على ظهره لعله ينعم بإغفاءة قليلة. غير أنه لم يغف بما فيه الكفاية بسبب أوجاعه النفسية. كمن يغرر في وركه سيخ، فقد جفل فجأة، فنهض منتصبا، مسّد شعره ولحيته الطويلة بيد مضطربة، ثم انطلق خارج الخان. واذا به يتناهى الى سمعه كلام العجوز الثرثارة الخليعة وهي تتندر عليه:

– انها المسألة نفسها، انه ذاهب ليقترف الزنا وينكح أمه، يا فتى اذا تأخرت في العودة فسوف لن افتح لك الباب، تجرعت السم ان شاء الله، ايها السكير المنبوذ..

لم يكترث لكلامها. فقد جرفه تيار نفسه المتأججة. تدحرج صوب الأسواق. الاطفال ذوو الملابس المهترئة لا يزالون امام المقهى والمطاعم قبالة القلعة القديمة، يمرحون ويتقافزون، ويبسطون الأيدي للمارة:

– يا عم.. انا.. جائع.. هل من ثمن رغيف.. صدقة لله..

***

إن "هەتاو" قابعة بعيني حيوان خائف، على بعد من زكيبة العظام، هدير وصفير اسطوري في فناء الدار يشكل حفلا من الرعب. الملايين من البشر المكلومين الحزانى من السماء يذرفون الدموع بغزارة، والحيوان الخرافي ينفخ في المطر. اصبحت الحانة «الليلية» مكمنا لتفكير "قارەمان". في الجرعة الأخيرة استحال داخل كأسه الى فزاعة حية، يتحول دخان سجارته الى المرأة المتشحة بالسواد، يتأملها بعين ثملة. تتصارع اسنانه الصغيرة البيضاء مع بسمة متهكمة. يمد يده اليها، يضعها في حضنه، يثبتها على صدره على شكل الصليب، النوارس، والرجل العازب في دور اليهود، والأطفال الذين كانوا امام المطاعم، كانت تقف في صف متراص واحدا تلو الآخر خلف المرأة المتشحة بالسواد خلل دخان سجائره.. ثم يرفع نظره الى جدران الحانة. ثمة لوحة لرجل كهل، معلقة على الجدار، تشبه لحيته صوف كبش متسخ. ممتقع الأسارير، كأنه يبلع شيئا مرّا، وقد وقف في بلعومه، يقتعد كرسيا قديما، واضعا مرفقه فوق نصف طاولة، قبعته مائلة على طرف أذنه اليمنى، وقد غطت عينه اليمنى ايضا، يحمل في يده اليمنى قربة صغيرة، يرمق "قارەمان" بعين واحدة، غامضا عينه اليسرى كأنه يمزح معه. وقد كتب تحت اللوحة هذا البيت من شعر عمر الخيام بخط أنيق:

رغيف خبز تحت الشجر

قربة خمر وكتاب وانتِ

ثم حول نظراته الى لوحة أخرى عجيبة، يعبر فحواها بأن كل شيء في هذا الشرق خاطئ ومباح، كأس مدورة ذات عنق رفيع وطويل، فوق أرضية حمراء، ثمة بقع خضراء تلمع تحت اللون الأحمر، رأس امرأة حسناء ذات شعر منفوش بداخلها. كأنها منحورة ومسبلة الجفون. كل

ليلة مئات من الزبائن يكرعون الخمرة في صحتها ويحلمون بمضاجعتها. هناك بجانب الكأس آلة موسيقية مبتورة الأوتار، يتضح من شكل النوتات المرسومة أنها تعزف لحنا ما. "قارەمان" ينتابه الغثيان، يرغب في التقيؤ، يأخذ انفاسا سريعة من سيجارته ينفث دخانها بكثافة. ثم يتحول هذا الدخان الكثيف فوق رأسه الى سحابة صغيرة. ربما سوف تمطر، ومطرها من دماء حسراته وأنين عضلاته، المائدة التي قبالته يتيمة، فارغة، آثار بعض الوقائع لا زالت شاخصة عليها. بعض من الأطباق تحوي بعض النفايات. حبات زيتون ترقد فوق الشرشف الملوث كأنها جنادب سوداء راقدة فوق يرقاتها. قدح او قدحان لا يزال فيهما جرعات بيضاء. كل قدح محاط بأسراب من النمل، وقد قضت عشرات النمل نحبها داخل السائل الأبيض المترسب. صرصار جامح يحوم حول النمل.. ارتسمت على شفتيه المزرقتين بسمة ساخرة جراء ذلك الصراع، شعر بالسأم. دبّ الخدر في جسده، انحسرت في داخله أغنية حزينة. يلتفت حوله، وكأنه يريد ان يصدح، كي يبدد كابوس أغنيته الحزينة، ثبت عينيه على لوحة الطفل المنتحب. أحس بوخزة في داخله، انه طفل أشقر، تنساب دمعة من عينه اليسرى، وتسيل على وجنته البضة، كأفعوانه مولودة للتو، تزحف من مهد الوجود نحو الحياة.. حال خروجه من الحانة تقيأ كل ما شرب وأكل..

***

هناك شبحان كانا يترنحان، او يقفزان فوق الحفر والنتوءات. يقصر احد الشبحين بعض المرات، ثم يطول كأنما يجرونه من الأعلى، ويميل نحو الشبح الآخر، ولم يبق سوى شبرين حتى اندمج الشبحان في الجزء العلوي، يتخلف الشبح القصير قليلا، ثم يلتصق بالشبح الآخر الذي أطول منه عند النصف، يقصر، يطول، يقصران، يطولان واحدا تلو

الآخر، يسمعان عواء ابن آوى من بعيد. الشبح القصير يداخله الاضطراب. يلتصق بالآخر فجأة. من ثم على حين غرة يبتعد عن الآخر، مثل حائط ينهار أثر صوت الرعد. نباح كلاب قريبة يجعل منهما شبحا هائلا، يلتصقان، ثم ينفصلان عن بعضهما فجأة، وميض أزرق مائل الى البياض ينير تلك الأصقاع في غمضة عين. رذاذ المطر يترنح ببطء مع هبوب الريح، ثمة صوت يندّ من الشبحين:

– عميت عينا أمك، لم نسوي قبرها جيدا، ربما سوف يمتلئ بالمياه..

كأنه آلاف القرَب توجه فوهاتها نحو الأرض..

– كأن السماء قد تفلطحت..

– لا تكفر..

– لقد سويت التراب من فوق قبرها بالأقدام بصورة جيدة، وعملت له سورا ترابيا صغيرا ومجرى للمياه، كي لا تتجمع فيها مياة الأمطار..

– هل سويته بقدمك بأناة كي لا تحس بالألم؟ لولاك لجننتُ هذه الليلة..

– ان هذه السنين الطويلة لم تغير الاشياء كثيرا، فحسب وانما غيّرت كثيرا من المثل والقيم، ايضا هلكت مثل وقيم اكثر من قرن..

–.... !

– نجعل من قرية في سفح الجبل عشا ومرتعا. قرية ندفئ أنفسنا فيها أمام موقد طيني يتغذى بنار الحطب وأغصان البلوط..

– سوف نبتاع عنزة وبعض الدواجن. العنزة لإنتاج اللبن والرائب. والدواجن للبيض، نبدأ من جديد..

– اذا لم نستطع ان نبدأ نحن، فلنترك ذلك لأطفالنا..

–.... !

– سوف نحصل على حقل صغير، نبني غرفتين من اللبن والطين مثل

قصور المدينة، وحديقة صغيرة نزرع فيها الأشجار والنباتات المثمرة وغير المثمرة.

– لكن يبقى قبر "شاناز" في الغربة..!

– سوف آتي بك كل يوم خميس الى المدينة لزيارة قبرها. سنة واحدة كفيلة بنسيانها..

– آه.. بعد كل هذا العمر ماذا تريد ان تصنع؟ وماذا سوف تنفذ؟

– كل شيء.. إن الانسان ما دام تجري في عروقه دماء الحياة، ويملك القوة، لديه أمنيات كثيرة. تفنى حياة وتولد حياة ثانية اذا رزقنا بطفل ماذا تسميه؟ اذا كانت بنتا؟

– شاناز..

– واذا كان ولدا؟

– سوف نسميه بإسمك..

– كلا.. أبدا.. يعني هذا بأننا لم نغير شيئا..!

– اختلطت عليّ الأمور، لا استطيع ان أفكر في هذا الموضوع..

– عليك ان تروي لي حكاية هذه السنين السبع عشرة.

–..... !

– بعد أن نستقر في تلك القرية التي أخترناها، في الليالي التي تهطل فيها الأمطار، ونسمع نقراتها فوق سطح البيت، ونحتضن بعضنا من جراء دفء الغرفة..

– عليك أن تروي لي حكاية هذه الأعوام السبعة عشر من حياتكِ..

التصق الشبحان على أمل رؤية الشروق وكانا يحثان الخطى...

***

١٩٨٥ - ١٩٨٦ كركوك